هيا بنا نؤمن ساعة

حقوق الطبع محفوظة

طبعة مزيدة ومنقحة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هجري - ٢٠١٠ ميلادي

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هجري - ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٧٢٦٢م

الترقيم الدولي: I.S.B.N

٩٧٨-٩٧٧-٤٤١-٧٧٤-٣

هيا بنا
نؤمن ساعة

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقَـدّمَة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، مِلء السـماوات والأرض وملء ما بينهما، ومِلء ما شاء ربنا من شيء بعد، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه وسار على نهجه إلى يوم الدين، أما بعد:

لما غنم رسول الله ﷺ في بني النضير دعا ثابت بن قيس بن شماس ، فقال : «**ادْعُ لِي قَوْمَكَ**» ، قال ثابت : الخزرج يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «**الأَنْصَارَ كُلَّهَا!**» فدعا له الأوس والخزرج ، فتكلم رسـول الله ﷺ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهلـه ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجريـن وإنزالهم إياهم في منازلهم وإيثارهم على أنفسهم، ثم قال: «**إِنْ أَحْبَبْتُمْ قَسَمْتُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْـمُهَاجِرِينَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ، وَكَانَ الْـمُهَاجِرُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ السُّكْنَى فِي مَسَاكِنِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَعْطَيْتُهُمْ وَخَرَجُوا مِنْ دُورِكُمْ**». فتكلم سـعد بن عبادة وسـعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وجزاهما خيرًا، فقالا: «يا رسول الله بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دُورنا كما كانوا»، ونادت الأنصار- رضي الله عنهم وجزاهم خيرًا-: «رضينا وسلمنا يا رسول الله».

فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ ارْحَمْ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ**»[1].

إن هـذه الواقعة تعكس إلى حد كبـير أثر الإيمان عندما يتمكـن من القلوب، فالإيمان يصنع المعجزات ولا ريب.

(١) كتاب المغازي، غزوة بني النضير لـ أبي عبد الله الواقدي (١/ ٧٩).

ولقد نقلت إلينا كتب التاريخ مظاهر كثيرة لأثر الإيمان على جيل الصحابة رضوان الله عليهم، والذين كانوا قبل إسلامهم قومًا ضالين، يأكل القوي فيهم الضعيف.. يسيئون الجوار، ويعبدون الأحجار، ويتكالبون على الشهوات، ففعل بهم الإيمان ما فعل حتى أصبحوا مضرب المثل في كل الإيجابيات والفضائل.

ونحن إذ نعيش في عصر تعلو فيه رايات المادية، وتغلب آثارها بوضوح على واقع الناس من أَثَرَة وأنانية وتنافس على الدنيا..؛ حرِيٌّ بنا أن نعمل باستمرار على زيادة الإيمان في قلوبنا وقلوب من حولنا حتى يتغير العُرف العام للأمة، وتظهر فيها المظاهر الإيجابية كما ظهرت في الجيل الأول.

ومن أهم الوسائل التي تعيننا -بإذن الله- على تحقيق ذلك: **استشعار الحاجة الماسة لزيادة الإيمان في القلوب.**

فكلما استُثيرت مشاعر الاحتياج تجاه زيادة الإيمان؛ كلما قويت الرغبة، واشتدت العزيمة نحو تحقيقه.

ولكي تُستثار مشاعرنا تجاه هذا الأمر علينا أن نعود لسيرة الجيل الأول فنتعرف على ثمار الإيمان وآثاره عليهم.

وعلينا كذلك التعرف على مراحل الارتقاء والزيادة الإيمانية وآثارها المختلفة، والتي تظهر بوضوح في علاقة المرء بربه وبالناس، وتظهر كذلك في كيفية تعامله مع أحداث الحياة وتقلباتها المختلفة، ليكون هذا التعرف بمثابة المرآة التي تكشف مستواه الإيماني الحقيقي أمام نفسه، وساعتها يتأكد - كما تأكدت- بأنه لا يزال ينقصه الكثير، وأن أمامه شوطًا كبيرًا عليه أن يجتازه في رحلته الإيمانية، فيكون ذلك مدعاة لتشميره وسعيه الحثيث لتدارك ما فاته قبل أن يأتيه الموت فلا ينفعه حينئذٍ الندم، ولا الرغبة

في الصـــلاح: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

نســأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوقظ قلوبنا ويحييها بالإيمان، إنــه ولي ذلك والقادر عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

• • •

الفصل الأول

من ثمار الإيمان في جيل الصحابة

من ثمار الإيمان في جيل الصحابة

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

فالإيمان كالشجرة الطيبة المباركة[١] التي إذا ما أحسنَّا غرسها في القلب فإنها تُثمر -بإذن الله- ثمارًا يانعة وطيبة في كل الاتجاهات والأوقات، والأمثلة العملية التي تؤكد هذه الحقيقة من الكثرة بمكان، وسنذكر -بعون الله وفضله- في الصفحات القادمة بعض تلك الثمار، مع مزجها بنماذج تطبيقية من حياة الصحابة -رضوان الله عليهم- باعتبار أنهم أفضل أجيال الأمة بالإجماع.

لماذا الحديث عن جيل الصحابة؟!

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: من كان مُستنًّا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خير هذه الأمة، أبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا.. قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقْل دينه، فتشبَّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة[٢].

ويقول أبو الحسن الندوي في مقدمته لكتاب «حياة الصحابة»:

---

(١) قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: «الشَّجَرَةُ النَّخْلَةُ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَصْلُ الْكَلِمَةِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ- وَهُوَ الْإِيمَانُ- شَبَّهَهُ بِالنَّخْلَةِ فِي الْمَنْبَتِ، وَشَبَّهَ ارْتِفَاعَ عَمَلِهِ فِي السَّمَاءِ بِارْتِفَاعِ فُرُوعِ النَّخْلَةِ» تفسير القرطبي: (٩/ ٣٥٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نُعيم الأصبهاني (١/ ٣٠٥)، دار الكتاب العربي - بيروت، وفي شرح السنة للبغوي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١/ ٢١٤) ط: المكتب الإسلامي.

«إن السيرة النبوية وسير الصحابة وتاريخهم من أقوى مصادر القوة الإيمانية والعاطفة الدينية، التي لا تزال هذه الأمة تقتبس منها شعلة الإيمان، وتشتعل بها مجامر القلوب، التي يسرع انطفاؤها وخمودها في مهب الرياح والعواصف المادية، والتي إذا انطفأت فقدت هذه الأمة قوتها وميزتها وتأثيرها، وأصبحت جثة هامدة تحملها الحياة على أكتافها.

إنها تاريخ رجال جاءتهم دعوة الإسلام فآمنوا بها وصدقتها قلوبهم.. وضعوا أيديهم في يد الرسول ﷺ وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وعشيرتهم، واستطابوا المرارات والمكاره في سبيل الدعوة إلى الله، وأفضى يقينها إلى قلوبهم، وسيطر على نفوسهم وعقولهم، وصدرت عنهم عجائب الإيمان بالغيب، والحب لله والرسول، والرحمة على المؤمنين والشدة على الكافرين، وإيثار الآخرة على الدنيا، والحرص على دعوة الناس، وإخراج خلق الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، والاستهانة بزخارف الدنيا وحُطامها، والشوق إلى لقاء الله، والحنين إلى الجنة، وعُلو الهمة، وبُعد النظر في نشر رِفد الإسلام وخيراته في العالم، وانتشارهم لأجل ذلك في مشارق الأرض ومغاربها، ونسوا في ذلك لذَّاتهم، وهجروا راحاتهم، وغادروا أوطانهم، وبذلوا مُهَجَهم وحرّ أموالهم حتى أقبلت القلوب إلى الله، وهبَّت ريح الإيمان قوية عاصفة، طيبة مباركة، وقامت دولة التوحيد والإيمان والعبادة والتقوى، وانتشرت الهداية في العالم، ودخل الناس في دين الله أفواجًا»[١].

• • •

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي (١/ ١٥) بتصرف يسير.

الثمار العشر

إن الهدف الأساسي من التحدث عن ثمار الإيمان ومدى ظُهورها في جيل الصحابة -رضوان الله عليهم- هو استثارة مشاعر الاحتياج نحو التربية الإيمانية، وتقوية العزيمة لسلوك طريقها بإذن الله.

ولقد تم اختيار عشر ثمار ليتم الحديث عنها -بعون الله- وهي بإجمال:

أولًا: الـمُبادرة والـمُسارعة لفعل الخير.

ثانيًا: تقوية الوازع الداخلي.

ثالثًا: الزهد في الدنيا.

رابعًا: التأييد الإلهي.

خامسًا: إيقاظ القوى الخفية.

سادسًا: الرغبة في الله.

سابعًا: اختفاء الظواهر السلبية.

ثامنًا: التأثير الإيجابي في الناس.

تاسعًا: اتخاذ القرارات الصعبة.

عاشرًا: الشعور بالسكينة والطمأنينة.

والجدير بالذكر أن هذه الثمار العشر ما هي إلا قطوف يسيرة من شجرة الإيمان المباركة، ولقد تم اختيارها كأمثلة متنوعة، فمنها ما يتعلق بعلاقة المؤمن بربه، ومنها ما ينعكس على علاقته بدنياه وآخرته، ومنها ما يظهر آثاره على تعاملاته مع الآخرين.

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من التفاصيل حول هذه الثمار العشر.

• • •

أولًا: المبادرة والمسارعة لفعل الخير

من أهم ثمار الإيمان الحي أنك تجد صاحبه مبادرًا ومسارعًا لفعل الخير، يتحـــرك في الحياة وكأنه قد رُفعت له راية من بعيد، فهو يســـعى جاهدًا للوصول إليها مهـــما كلفه ذلك من بذل وتعب وتضحيـــة.. تراه دومًا يبحـــث عن أي باب يقربه من رضا ربـــه والتعرض لرحمته؛ ليندفع إليه مرددًا بلسان حاله: وعجلت إليك رب لترضى.

ولقـــد قرر القرآن هذه الحقيقـــة في قوله تعـــالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

فالآيات تُعطي دلالات واضحة على أن أصحاب القلوب المؤمنة الخاشعة لربها هم أكثر الناس مسارعة للخيرات وأسبقهم إليها.

وإليك -أخي القارئ- بعض الأمثلة من حياة الصحابة -رضوان الله عليهم- والتي تؤكد هذا المعنى:

■ خرج جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذات ســـنة إلى بلاد الروم غازيًا في سبيل الله، وكان الجيـــش بقيادة مالك بن عبد الله الخثعمي، وكان مالك يطوف على جنوده وهم منطلقون ليقف على أحوالهم، ويشُـــد من أزرهم، ويُولِي كبارهم ما يســـتحقونه من عنايـــة ورعاية، فمر بجابر بن عبد الله، فوجده ماشـــيًا ومعه بَغل له يمســـك بزمامه ويقـــوده، فقال له: ما بك يا أبا عبـــد الله، لم لا تركب، وقد يسَّر الله لك ظهرًا يحملك

عليه؟! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»(١).

فتركه مالك ومضى حتى غدَا في مقدمة الجيش، ثم التفت إليه، وناداه بأعلى صوته، وقال: يا أبا عبد الله، ما لك لا تركب بغلك، وهي في حوزتك؟! فعرف جابر قصده، وأجابه بصوت عالٍ وقال: لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»، فتواثب الناس عن دوابهم وكلٌّ منهم يريد أن يفوز بهذا الأجر، فما رُئِي جيش أكثر مشاة من ذلك الجيش(٢).

■ وروى النسائي عن أبي سعيد بن المُعَلَّى أنه قال: كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فمررنا يومًا ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر، فقلت: لقد حدث أمر، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ** ﴾ [البقرة: ١٤٤]، حتى فرغ من الآية، فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ، فنكون أول من صلى (في اتجاه الكعبة)، فتوارينا فصليناهما، ثم نزل رسول الله ﷺ وصلى بالناس الظهر يومئذٍ(٣).

---

(١) البخاري (برقم: ٢٨١١) في الجهاد باب: من اغبرت قدماه في سبيل الله (برقم: ٩٠٧) في الجمعة، باب: المشي إلى الجمعة.

(٢) أصل الحديث «**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ**....» رواه البخاري (٢/ ٧ برقم: ٩٠٧) عن أبي عبس عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أما روايته عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بهذا السياق، فعند عبد الله بن المبارك في كتاب «الجهاد» (ص:٤٤ برقم: ٣٢)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٦٣ برقم: ٤٦٠٤)، ورواه أبو داود الطيالسي في المسند (٣/ ٣٢٤ برقم: ١٨٨١)، وأحمد بن حنبل في المسند (٢٣/ ٢٠٥ برقم: ١٤٩٤٧) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا باختصار.

(٣) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ١٧ برقم: ١٠٩٣٧)، بهذا السياق، ورواه مختصرًا في السنن الصغرى (٢/ ٥٥ برقم: ٧٣٢)، ورواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٠٣)، الإثيوبي في ذخيرة العقبى شرح المجتبى (١١/ ٥٦٠).

التنافس في الخير

صاحب الإيمان الحي لا يُريد أن يسبقه أحد إلى الوصول للراية العُظمى.. راية رضا الله والتعرض لرحمته ومغفرته ودخول جنته؛ لذلك تراه حزينًا حين تتحين أمامه فرصة للاقتراب من تلك الراية ولا يستطيع اغتنامها لأسباب خارجة عن إرادته كالمرض أو الفقر، ولنا في قصة البَكَّائين خير مثال على ذلك:

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين (غزوة تبوك)، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن معقل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا. فقال: «**واللهِ مَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**»، فتولَّوا ولهم بكاء، وعَزَّ عليهم أن يُحبَسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملًا. فأنزل الله عذرهم: ﴿**وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ**﴾ [التوبة: ٩٢][1].

وفي الصحيحين أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدُّثور (الأموال الكثيرة) بالدرجات العُلى والنعيم المقيم، فقال ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**»، فقالوا: يُصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ، إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**»، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في التفسير (١١/ ٦٢٣) - طبعة هجر.

فقال رسول الله ﷺ: «**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**»(١).

شدة الحرص على دعوة الخلق إلى الله

كلما ازداد الإيمان وشعر المرء بحلاوته ازدادت رغبته في دعوة الناس جميعًا إلى الله، وإلى التحرر من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وكيف لا وهو يرى الكثيرين ممن حوله يعانون من آثار القيود والسجون المعنوية المحبوسين فيها، والتي كانت تحيط به قبل ذلك، فمَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه وحرره منها؛ لذلك فهو لا يهدأ ولا يقر حتى يُبلِّغ الدعوة إليهم ما وسعه الجهد والوقت والمال.

ويدفعه لأداء هذا الواجب كذلك علمه بأن الدعوة إلى الله من أحب الأعمال إليه سبحانه..

.. من هنا نُدرك كيف اشتد حرص الصحابة على دعوة الخلق إلى الله.

فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد إسلامه يُسارع بالدعوة إلى الله من وَثق به من قومه، فأسلم على يديه: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عُبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (٢).

وذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لـمَّا انصرف عن ثقيف اتَّبع أثره عروة بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ**»، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع للذي كان منهم، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أَحَب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك مُحببًا مطاعًا.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١/ ١٦٨ برقم: ٨٤٣)، ومسلم (١/ ٤١٦ برقم: ٥٩٥) واللفظ له.
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠) - تحقيق السقا وزميليه. ورواه الطبري في تاريخه (٣/ ٩٦).

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه بمنزلته فيهم، فلما أشرف على عُلَّية (مكان مرتفع) -وقد دعاهم إلى الإســـلام وأظهر لهم دينه- رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله، فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليَّ[١].

• • •

(١) سيرة ابن هشام: (٢/ ٥٣٨).

ثانيًا: تقوية الوازع الداخلي

كلما قوِي الإيمان، ازدادت حساسية الفرد تجاه الوقوع أو مجرد الاقتراب من الشبهات والمحظورات، والعكس صحيح، فكلما ضَعُف الإيمان نقصت تلك الحساسية.. يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه، فقال به هكذا[١] (أي: نحَّاه بيده أو دفعه).

معنى ذلك أن درجة إيمان الفرد يعكسها شعوره وحساسيته تجاه الذنوب، وفي أي الاتجاهين تكون.

.. هل تقترب من حال من يقعد تحت صخور جبل مهدد بالانهيار في أي لحظة، أم من حال من تمر ذبابة على أنفه؟

من هنا نقول بأن الإيمان الحي هو الذي يضبط سلوك الإنسان، (ويترك مع كل نفس رقيبًا لا يغفل، وحارسًا لا يسهو، وشاهدًا لا يُجامل ولا يحابي، ولا يضل ولا ينسى... يصاحبها في الغدوة والروحة، والمجتمع والخلوة، ويرقُبها في كل زمان، ويلحظها في كل مكان، ويدفعها إلى الخيرات دفعًا، ويدعُّها عن المآثم دعًّا، ويجنبها طريق الزلل، ويبصرها سبيل الخير والشر)[٢].

.. في يوم من الأيام ذكر النبي ﷺ أنواع الخيل وأنها لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر... فسئل عن الحُمُر؟ قال: **ما أنزل الله عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة**

(١) رواه البخاري (٨/ ٦٧ برقم: ٦٣٠٨) ط: السلطانية.
(٢) مجموع الرسائل.

الفـاذة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨][(١)].

فعندما يزداد الإيمان بأن هناك حسـابًا على اليسـير من العمل -ولو كان مثقال ذرة- كما تُشـير الآيات؛ فإن ذلك من شـأنه أن يدفع المرء للتحرك بحساسية وحذر شديدين تجاه التعامل مع جميع الأشياء.

.. نعم، هذا هو أهم قانون لضبط السـلوك، ومهـما وُضِعت القوانين الصارمة في المجتمعات لضبط سـلوك الأفراد فلـن تؤتي ثمارها إلا إذا بُدئ بإصلاح الإيمان في القلوب لتكون من ثمرته: تقوية الوازع الداخلي.

وصدق من قال:

لا تنتهي الأنفس عن غيِّها ... ما لم يكن لها من نفسها دافع

الحارس الأمين

يقول أبو الأعلى المودودي: إن الإيمان يزرع في داخل الإنسان حارسًا من الشرطة يدفعـه إلى العمل ويحثه على الائتمار بأوامر الله عَزَّوَجَلَّ.. هذا الوازع النفسي، والحارس الداخلي هو الذي يشـد عضد قانون الإسلام الخلقي والسـلوكي ويجعله نافذًا بين الناس في حقيقة الأمـر.. هذا الإيمان هو الذي يضمن هداية الفرد المسـلم، والأمة المسلمة إلى سواء الطريق إذا ما كان قد تمكن من القلب.

.. جـاء رجل فقعد بـين يدي النبي ﷺ، فقـال: يا رسـول الله إن لي مملوكين

(١) البخاري (٦/ ١٧٥ برقم: ٤٩٦٢، ٩/ ١٠٩ برقم: ٧٣٥٦)، مسلم (٢/ ٦٨٢ برقم: ٩٨٧) ط: دار إحياء التراث.

يَكذِبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا فيهم؟! فقال رسول الله ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ، وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ.. اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ**»، فتنحى الرجل، وجعل يهتف ويبكي، فقال رسول الله ﷺ: أما تقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا خيرًا من مفارقتهم، أشهدك أنهم كلهم أحرار[(١)].

شدة الورع

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان لأبي بكر غلام يُخرج له الخراج، وكان أبو بكر يُخرج من خراجه، فجاء يومًا بشيء ووافق من أبي بكر جوعًا، فأكل منه لقمة قبل أن يسأل عنه، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أُحسن الكهانة ولكني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه.. فماذا فعل أبو بكر عندئذٍ؟! فعل فعلًا عجيبًا.. أدخل أصبعه في فمه فقاء كل شيء في بطنه[(٢)].

وروى ابن جرير الطبري في تاريخه، قال: لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض (الغنائم) أقبل رجل بحق (شيء من الغنيمة) معه فدفعه إلى صاحب

(١) رواه أحمد (٤٣/ ٤٠٦ برقم: ٢٦٤٠١)، ورواه الترمذي (٥/ ٣٢٠ برقم: ٣١٦٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا والبيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٤٣ برقم: ٣٨٤٢).

الأقباض، فقال هو والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا، ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئًا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأنًا، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني (أي ليثنوا عليَّ) ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه، فأتبعوه رجلًا حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس[١].

ولقد كان الورع مما يتواصى به الصحابة رضوان الله عليهم فيما بينهم.. فعن عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جعل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصي خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويقول:

... فإذا دخلت بلادهم فالحذر الحذر إذا لقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به، السهم للسهم، والرمح للرمح، والسيف للسيف، فإن أعطاك الله الظفر عليهم، فأقل البقيا عليهم إن شاء الله تعالى، وإياك أن تلقاني غدًا بما يضيق صدري به منك، اسمع عهدي ووصيتي، لا تغيرن على دار سمعت فيها أذانًا حتى تعلم ما هم عليه، وإياك وقتل من صلى، واعلم يا خالد أن الله يعلم من سريرتك ما يعلم من علانيتك، واعلم أن رعيتك إنما تعمل بما تراك تعمل، كف عليك أطرافك، وتعاهد جيشك، وانههم عما لا يصلح لهم، فإنما تقاتلون من تقاتلون بأعمالكم، وبهذا نرجو لكم النصر على أعدائكم، سر على بركة الله تعالى[٢].

■ وكتب عمر إلى سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنه قد أُلقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو وهزمتموهم، فاطرحوا الشك، وآثروا عليه اليقين، فمن لاحن منكم أحدًا من العجم بأمان بإشارة أو بلسان ولا يدري الأعجمي ما كلمتموه به، وكان عندهم أمانًا،

(١) تاريخ الطبري (٤/ ١٦).
(٢) كتاب الغزوات لابن حبيش (ص: ٤٤-٤٦) ت أحمد غنيم.

فأجروا ذلك مجرى الأمان، وآثروا اليقين والنية على الشك، وإياكم والمحك، وعليكم بالوفاء، فإن الخطأ مع الوفاء له بقية، والخطأ بالغدر هلكة، وفيها وهنُكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم، وإياكم أن تكونوا شينًا على المسلمين، وسببًا لتوهينهم(١).

■ ويُحدِّث عاصم بن كليب عن أبيه أنه كان في إحدى المعارك، فقال: كان عليَّ قميص قد تخرَّق، فأخذت إبرة وسلكًا، فجعلت أخيط قميصي بها، ثم إني نظرت إلى رجل من القتلى عليه قميص فنزعته، فأتيت به الماء، فجعلت أضربه بين حجرين حتى ذهب ما فيه، فلبسته، فلما جمعت الرثة، قام مجاشع خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس لا تغلُّوا، فإنه من غلَّ جاء بما غل يوم القيامة، ردُّوا ولو المخيط، **فلما سمعت ذلك نزعت القميص فألقيته في الأخماس**(٢).

• • •

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٤٤٩).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ١٧٥). الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٥٩١).

ومن ثمار الإيمان

ثالثًا: الزهد في الدنيا

مـــن تعريفات الزهد: «انـــصراف الرغبة في الشيء مع وجـــوده»، ومثال ذلك: الطفل الذي يسعد ســـعادة غامرة حين يلعب بالدُّمَى، ويحرص على اقتنائها، ويحلم بشراء الجديد منها، ولكن عندما يكبر هذا الطفل بضع ســـنين تجد حرصه وشـــغفه وفرحه بهـــذه اللعب يقل ويقل، إلى أن يزول وتنصرف رغبته عنها فيصير زاهدًا فيها ولا يُبالي بوجودها إذا ما وُجدت، ولا يحزن على ضياعها إذا ما فُقدت.

وحـــال الناس مع الدنيـــا –بدون الإيمان– كحال الأطفـــال مع لِعَبهم، ولكي يزهدوا فيها لا بد من نمو الإيمان في قلوبهم.

فعندما يقوى الإيمان في القلب يقل تعلق صاحبه بالدنيا، ورغبته فيها، وحرصه عليها.

.. نعم، هو لن يتركها ببدنه بل يتركها بقلبه، فالزهد حالة شُـــعورية يعيشها المرء كانعكاس لارتقاء الإيمان الحقيقي في قلبه، وهو لا يستلزم الفقر، ولا يتنافى مع الغنى.

.. الزاهد في الدنيا لا ينشغل بها كثيرًا إذا ما وُجدت بين يديه، فعلى سبيل المثال: قـــد يتوفر لديه العديد من الملابس، فإذا ما أراد الخروج من منزله فإنه لا يقف أمامها طويلًا إنما يرتدي ما امتدت إليه يده، وهو حين يفعل ذلك يفعله بتلقائية تعكس حالة قلبه الإيمانية.

وكلما قـــوي الإيمان أكثر وأكثر ازداد تعلق صاحبه بالآخرة ورغبته فيها، وازداد زهده في الدنيا بصورة أشـــد وأشد؛ لدرجة أنه لا يترك لنفسه إلا أقل القليل منها وبما

يُحقق له ضروريات الحياة، وليس هذا بسبب معارضته لمبدأ التمتع بمُباحات الدنيا، ولكن لأن إيمانه يأبى عليه ذلك ويدفعه لاستثمار كل ما يأتيه في حياته لداره الآخرة، متمثلًا قول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٧]؛ لذلك فهو يحتاج دومًا إلى من يذكره بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وكيف لا، وإيمانه يأبى عليه أن يتوسع في هذا النصيب؟!

هكذا كانوا

بهذه المستويات الإيمانية تعامل الصحابة -رضوان الله عليهم- مع الدنيا، فكانت منهم أحوال عجيبة يستغرب منها أمثالي من ضعاف الإيمان الذين لا يزالون في مرحلة الطفولة واللهو بطين الأرض.

.. فهذا أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نزلت به جماعة من الأضياف في ليلة شديدة البرد فأرسل إليهم طعامًا ساخنًا، ولم يبعث إليهم بالأغطية، فلما هموا بالنوم جعلوا يتشاورون في أمر اللُّحف، فقال واحد منهم: أنا أذهب إليه وأكلمه، فمضى حتى وقف على باب حجرته فرآه قد اضطجع وما عليه إلا ثوب خفيف لا يقي من حر ولا يَصُون من برد، فقال الرجل لأبي الدرداء: ما أراك بت إلا كما نبيت نحن! أين متاعكم؟!

> **فقال: لنا دار هناك نُرسل إليها تباعًا كل ما نحصل عليه من متاع، ولو كنا قد استبقينا في هذه الدار شيئًا منه لبعثنا به إليكم، ثم إن في طريقنا الذي سنسلكه إلى تلك الدار عقبة كؤودًا المُخِفُّ فيها خير من المُثقِل، فأردنا أن نتخفف من أثقالنا علَّنا نجتاز**[1].

(١) نقلًا عن صور من حياة الصحابة (ص: ٢٠٨) - عبد الرحمن رأفت الباشا - دار النفائس. والأثر رواه =

وكان طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تاجرًا، فجاءه ذات يوم مال من «حضرموت» مقداره سبعمائة ألف درهم، فبات ليلته جزعًا محزونًا.

فدخلتْ عليه زوجته أم كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقالت: ما بك يا أبا محمد؟! لعله رابك منَّا شيء!

فقال: لا، ولنِعْمَ حليلة الرجل المسلم أنت، ولكن تفكرت منذ الليلة وقلت: ما ظن رجل بربه إذا كان ينام وفي بيته هذا المال؟! قالت: وما يغمك منه؟! أين أنت من المحتاجين من قومك وأخلَّائك؟! فإذا أصبحت فقسمه بينهم، فقال: رحمك الله، إنك موفقة بنت موفق، فلما أصبح جعل المال في صُرَرٍ وجِفَان، وقسمه بين فقراء المهاجرين والأنصار(١).

.. وفي يوم من الأيام دخل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض ممن يثق بهم من أهل «حِمص»، فقال لهم: اكتبوا لي أسماء فقرائكم حتى أسُدَّ حاجاتهم، فرفعوا إليه كتابًا فإذا فيه فلان وفلان، وسعيد بن عامر، فقال: ومن سعيد بن عامر؟! فقالوا: أميرنا. قال: أميركم فقير؟! قالوا: نعم، ووالله إنه لتمر عليه الأيام الطوال ولا يوقد في بيته نار، فبكى عمر حتى بللت دموعه لحيته، ثم عمد إلى ألف دينار فجعلها في صُرَّة وقال: اقرؤوا عليه السلام مني، وقولوا له: بعث إليك أمير المؤمنين بهذا المال لتستعين به على قضاء حاجاتك.

جاء الوفد لسعيد بالصُّرة فنظر إليها فإذا هي دنانير، فجعل يُبعدها عنه ويقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، فهبَّت زوجته مذعورة وقالت: ما شأنك يا سعيد؟! أمات

= أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٢٢).

(١) صور من حياة الصحابة (ص: ٤٧٧)، والأثر رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٨٨).

أمير المؤمنين؟! قال: بل أعظم من ذلك. قالت: أأُصيب المسلمون في واقعة؟! قال: بل أعظم من ذلك، قالت: وما أعظم من ذلك؟! قال: دخَلتْ عليَّ الدنيا لتُفسد آخرتي، ودخَلتْ الفتنة في بيتي. فقالت: تخلَّص منها، قال: أو تُعِينيني على ذلك؟ قالت: نعم. فأخذ الدنانير فجعلها في صُرَرٍ ثم وزعها[١].

.. وهذا خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدخل عليه بعض أصحابه وهو في مرض الموت فيقول لهم: إن في هذا المكان ثمانين ألف درهم، والله ما شددْتُ عليها رباطًا قط، ولا منعت منها سائلًا قط، ثم بكى، فقالوا: ما يبكيك؟! فقال أبكي لأن أصحابي مضوا ولم ينالوا من أجورهم في هذه الدنيا شيئًا، وإني بقيت فنلت من هذا المال ما أخاف أن يكون ثوابًا لتلك الأعمال[٢].

.. وهذا سعد بن أبي وقاص يذهب إلى سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يعوده فرآه يبكي، فقال له سعد: ما يبكيك يا أخي؟ أليس قد صحبت رسول الله ﷺ ؟ أليس...؟ قال سلمان: ما أبكي واحدة من اثنتين، ما أبكي ضَنًّا على الدنيا، ولا كراهية في الآخرة، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهدًا ما أراني إلا قد تعدَّيت، قال: وما عَهِد إليك؟ قال: عَهِدَ إِلَيْنَا أَنَّهُ يَكْفِي أَحَدَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا مِثْلُ زَادِ الرَّاكِبِ، ولا أراني إلا قد تعدَّيت..[٣]، فجُمع مال سلمان فكان قيمته خمسة عشر درهمًا[٤].

وفي فتح إيلياء قدم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على جند المسلمين في الشام ليعقد

(١) صور من حياة الصحابة (ص: ١٢)، والأثر رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٤٤).
(٢) صور من حياة الصحابة (ص: ٤١٨)، والأثر رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٤٦).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المسند (١/ ٣٠٦ برقم: ٤٦٠)، وابن ماجه (٥/ ٢٢٤ برقم: ٤١٠٤) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٧٩) رواه ابن ماجه ورواته ثقات احتج بهم الشيخان إلا جعفر بن سليمان فاحتج به مسلم وحده.
(٤) أخرجه ابن حبان (٢/ ٤٨١ برقم: ٧٠٦)، والمعجم الكبير (٦/ ٢٦٨ برقم: ٦١٨٢).

الصلح مع أهلها، ولم يبقَ أمير من أمراء الأجناد إلا استزار عمر، فيصنع له ويسأله أن يزوره في رحله، فيفعل ذلك عمر، إكرامًا لهم، غير أبي عبيدة، فإنه لم يستزره.

فقال له عمر: إنه لم يبقَ أمير من أمراء الأجناد إلا استزارني غيرك. فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، إني أخاف إن استزرتك أن تعصر عينيك.

فأتاه عمر في بيته، فإذا ليس في بيته إلا لبد فرسه، وإذا هو فراشه وسرجه وإذا هو وسادته، وإذا كسر يابسة في كوة بيته، فجاء بها، فوضعها على الأرض بين يديه، وأتى بملح جريش، وكوز خزف فيه ماء. فلما نظر عمر إلى ذلك بكى، ثم التزمه وقال: أنت أخي، وما من أحد من أصحابي إلا وقد نال من الدنيا ونالت منه، غيرك.

فقال له أبو عبيدة: ألم أخبرك أنك ستعصر في بيتي عينيك![1].

الزهد في الإمارة

كان أبو بكر الصديق قد ولى خالدًا بن سعيد إمارة الجيش المتوجه لفتح بلاد الشام.. وقد راجع عمر بن الخطاب فيه أبو بكر الصديق.. وكان أبو بكر لا يخالف عمر ولا يعصيه، فدعا يزيد بن أبي سفيان، وأبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهم أجمعين، فقال لهم: إني باعثكم في هذا الوجه، ومؤمركم على هذا الجند، وأنا باعث على كل رجل من الرجال ما قدرت عليه، فخرج القوم يتجهزون، وبلغ ذلك خالد بن سعيد، فتيسر وتهيأ بأحسن هيئة، ثم أقبل نحو أبي بكر وعنده المهاجرون والأنصار أجمع ما كانوا، وقد تيسر الناس، وأمروا بالعسكرة مع هؤلاء النفر الثلاثة، فسلم على أبي بكر وعلى المسلمين، ثم جلس، فقال لأبي بكر: أما إنك كنت وليتني أمر الناس، وأنت لي غير متهم، ورأيك فيّ حسن حتى خُوِّفت مني أمرًا،

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٣٠٦).

والله لأن أخر من رأس حالق[١] أو تخطفني الطير في الهواء بين الأرض والسماء أحب إليَّ من أن يكون ما ظُن، والله ما أنا في الإمارة براغب، ولا على البقاء في الدنيا بحريص، وإني أشهدكم أني وإخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي جيش في سبيل الله نقاتل المشركين أبدًا حتى يهلكهم الله أو نموت، لا نريد به حمد الناس ولا جزاءهم[٢].

.. وهذا خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما خرج من عين التمر[٣] مقبلاً إلى الشام كتب إلى المسلمين مع عمرو بن الطفيل بن عمرو الأزدي -وهو ابن ذي النور:

أما بعد، فإن كتاب خليفة رسول الله أتاني فأمرني بالمسير إليكم، وقد شمرت وانكمشت، وكأن قد أظلت عليكم خيلي ورجالي، فأبشروا بإنجاز موعود الله وحسن ثواب الله.. عصمنا الله وإياكم باليقين وأثابنا أحسن ثواب المجاهدين، والسلام عليكم.

وكتب معه إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإني أسأل الله تعالى لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا من كل سوء، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ، يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالقيام على جندها، والتولي لأمرها، **والله ما طلبت ذلك قط، ولا أردته إذ وليته، فأنت على حالتك التي كنت لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع أمرًا دونك**، فإنك سيد المسلمين، لا ننكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك، تمم الله ما بنا وبك من إحسان، ورحمنا وإياك من صلى النار، والسلام عليك ورحمة الله[٤].

(١) الحالق أي الجبل العالي. انظر لسان العرب (ج١٠ ص: ٥٩).

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ١٧١)، تاريخ الطبري (٣/ ٣٨٨).

(٣) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة. معجم البلدان (ج٤ ص: ١٧٦).

(٤) هذه الرسالة والتي قبلها مختصرتان وبقيتهما في الأزدي (ص: ٦١، ٦٢).

ومن ثمار الإيمان

رابعًا: التأييد الإلهي

الله عَزَّوَجَلَّ هو مالك الكون وربه ومدبر أمره: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

لا يوجد له شريك في ملكه، يفعل ما يشاء.. يُقدِّم ويُؤخِّر، يقبض ويبسط، يخفض ويرفع، يُعز ويُذل: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ﴾ [فاطر: ٢].

وإن كان البشر كلهم أمام الله سواء فلا أفضلية لجنس أو قبيلة أو لون، إلا أنه سبحانه يزيد من إكرامه وعنايته ورعايته للمؤمنين الذين يُحبُّونه ويُؤثرونه على هواهم: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فالكرامة على قدر الاستقامة:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وكلما ارتقى العبد في سلم الإيمان ازدادت ولاية الله له: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وفي الحديث القدسي: «**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ**

عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[١].

هذه الولاية والكفاية تشمل الفرد المؤمن، وتشمل المجتمع المؤمن.

.. فعلى مستوى الفرد

يتولى الله عَزَّوَجَلَّ أمور عبده المؤمن بما يُحقق له مصلحته الحقيقية ويجلب له السعادة في الداريـــن، وفي بعض الأحيان قد تكون من مظاهر تلك الولاية التضييق على العبد في أمـــور الدنيا، إلا أنها تحمل في طياتها خيرًا كثيرًا، وفي هذا المعنى يقول رســـول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَحْمِـي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِـنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَـا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ**»[٢].

الأمة والإيمان

أما في محيط الأمة، فلا يكفي إيمان بعض الأفراد –هنا وهناك– لكي تتحقق بهم الولاية والنصرة للأمة، فالأمة كالجســـد الواحد، لا يكـــون صحيحًا إلا إذا صحَّت جميع أعضائه.

بمعنى أن وجود أفراد صالحين في ذواتهم لا يكفي لاســـتجلاب المعية والنُّصرة الإلهية، بل لا بد وأن يقوموا بالعمل على إصلاح غيرهم –بإذن الله– وأن يبذلوا غاية جهدهم في ذلك من خلال العمل على تقوية الإيمان في قلوبهم، وتصحيح التصورات والمفاهيم الخاطئة في عقولهم، ودفعهم إلى طريق التواضع ونكران الذات، وتعويدهم على بذل الجهد في سبيل الله.

وعندما تشيع معاني الصلاح في الأمة؛ وعندما يتغير العُرف العام للأمة، وتشيع

(١) البخاري (٨/ ١٠٥ برقم: ٦٥٠٢).

(٢) مسند أحمد (٣٩/ ٣٣ برقم: ٢٣٦٢٢)، والحاكم (٤/ ٢٣١ برقم: ٧٤٦٥) وصححه ووافقه الذهبي.

فيها معاني الصلاح، ويرتفع منسوب الإيمان في القلوب بنسبة مقبولة تتيح للمسلم اتخاذ قرارات التضحية ببعض شهواته ومصالحه من أجل نصرة دينه.. عندئذٍ يتحقق موعود الله بنصر الأمة -بإذنه سبحانه- مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

وتاريخ الأمة خير شاهد على أنه عندما يغلب الإيمان والصلاح على جيل من أجيال الأمة، فإن النصر يكون حليفهم، والتأييد الإلهي لا يتجاوزهم.. انظر -إن شئت- إلى آيات القرآن وهي تُقرر وتُؤكد على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

فالآية تؤكد أن الملائكة ستنزل سريعًا لتؤيد المؤمنين، وتقاتل معهم فور تحققهم بالصبر والتقوى، وفي المقابل؛ فعندما يغيب الإيمان ينقطع التأييد الإلهي، ويُترك المسلمون لأعدائهم ليسوموهم سوء العذاب.

الوعد الحق

لقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ عباده المؤمنين بالغلبة والنصر: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

متى يتحقق هذا الوعد القاطع؟

يُجيب صاحب الظلال عن هذا السؤال في تفسيره لهذه الآية فيقول: إنه وعد من الله قاطع، وحُكم من الله جامع: أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين،

وتمثَّلت في واقع حياتهم منهجًا للحياة، ونظامًا للحكم، وتجردًا لله في كل خاطرة وحركة، وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة.. فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تُخالفها، **وأنا أُقرر في ثقة بوعد الله لا يُخالجها شك، أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان: إما في الشعور، وإما في العمل** -ومن الإيمان أَخذُ العدة، وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة- وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية، ثم يعود النصر للمؤمنين حين يوجدون.

ففي «أُحد» مثلًا، كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ، وفي الطمع في الغنيمة. وفي «حُنين»كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئًا من هذا.. نعرفه أو لا نعرفه.. أما وعد الله فهو حق في كل حين.

> **.. نعم، إن المحنة قد تكون للابتلاء.. ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة، هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضياته من الأعمال -كما وقع في أُحُد وقصَّهُ الله على المسلمين- فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه، جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين.**

.. وحين يُقرر النص القرآني أن: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**﴾ [النساء: ١٤١]، إنما يدعو الجماعة المسلمة لاستكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصورًا وشعورًا، وفي حياتها واقعًا وعملًا. وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها. فالنصر ليس

للعنوانات. إنما هو للحقيقة التي وراءها.

وليس بيننا وبين النُّصرة في أي زمان وفي أي مكان، إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان، ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك.. ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة.

إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى، التي لا تَضعُف ولا تفنى.. وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها.. ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون جميعًا.

غير أنه يجب أن نُفرِّق دائمًا بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان.. إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية، ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل. وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تُواجِه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها[1].

نماذج للولاية والتأييد الإلهي

والنماذج العملية للتأييد الإلهي للمؤمنين كثيرة، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أم الجماعة المؤمنة.

فعلى مستوى الفرد

- أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «مُجابو الدعوة» عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يُكنى أبا معلَّق وكان تاجرًا يتَّجر بمالٍ له ولغيره، وكان له نُسك وورع، فخرج مرة، فلقيه لِص مُتَقَنِّع في السلاح، فقال:

(١) في ظلال القرآن: (٢/ ٧٨٢، ٧٨٣).

ضع متاعك فإني قاتلك، قال: شأنك بالـمال، قال: لستُ أُريد إلا دمك، قال: فذرني أُصلي، قال: صلِّ ما بدا لك، فتوضأ ثم صلَّى، فكان من دعائه:

يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعَّالًا لما يُريد، أسـألك بعزتك التي لا تُرام[١]، وملكك الـذي لا يُضام[٢]، وبنورك الذي ملأ أركان عرشـك، أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني. قالها ثلاثًا، فإذا هو بفارس، بيده حربة رافعها بين أذني فرسه، فطعن اللص فقتله، ثـم أقبل على التاجر، فقال: من أنت، فقد أغاثني الله بك؟ قال: إني ملَك من أهل السماء الرابعة، لما دعوتَ سُمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوتَ ثانيًا، فسُـمعت لأهل السـماء ضجَّة، ثم ثالثًا فقيل: دعاء مكروب، فسـألت الله أن يُوليني قتله[٣].

- وأخرج الحاكم عن محمد بن المنكدر أن «سفينة» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولى رسول الله ﷺ قال: ركبـت البحر فانكسرت سـفينتي التي كنـت فيها، فركبت لوحًـا من ألواحها فطرحني اللوح في أجَمَة[٤] فيها الأسد، فأقبل إليَّ يُريدني، فقلت: يا أبا الحارث، أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ، فطأطأ رأسه، وأقبل إليَّ، فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق، وهمهـم، فظننت أنه يودعني، فكان ذلك آخر عهدي به[٥].

- ولما فتح عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصر، أتى أهلها حين دخل بؤونة (من أشـهُر

(١) لا تُرام: لا تُطلب.
(٢) لا يُضام: لا يُذَل.
(٣) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا (برقم: ٢٣).
(٤) أجمة: شجر كثير ملتف.
(٥) المستدرك على الصحيحين (٣/ ٧٠٢ برقم: ٦٥٥٠) وصححه، ووافقه الذهبي، حلية الأولياء (١/ ٣٦٩).

القبط) فقالوا له: أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سُـنة لا يجـري إلا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها شـيئًا من الحُلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسـلام، فإن الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا أشـهُر بؤونة وأبيب ومَسَرى لا يجري قليلًا ولا كثيرًا حتى همُّوا بالجلاء.

فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك، فكتب إليه عمر: قد أصبت، إن الإسـلام يهدم ما قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة، فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي، فلما قدِم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر؛ أما بعد:

فإن كنـت تجري من قِبَلِك فلا تجر، وإن كان الواحد القهار يُجريك،فنسـأل الله الواحد القهار أن يُجريك.

فألقى عمرو البطاقة في النيل -وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها؛ لأنهم لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل- فأصبحوا وقد أجراه الله ست عشرة ذراعًا، وقطع تلك السُّنَّة السوء عن أهل مصر[1].

التأييد الإلهي للفئة المؤمنة

عندما ننظر إلى المعارك التي خاضها الجيل الأول مع أعداء الدين نجد أن الميزان «المادي» يميل بقوة نحـو أعدائهم من حيث العدد والعُـدَّة، ومع ذلك كان النصر

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٤٢٤ برقم: ٩٣٧٣)، وابن عساكر (٤٤/ ٣٣٦)، انظر حياة الصحابة (٣/ ٤٠٨، ٤٠٩).

حليف المؤمنين، مع الأخذ في الاعتبار بأن الفئة المؤمنة لم تُقصر أبدًا في الأخذ بالأسباب المادية المتاحة أمامها، ولكن كانت تلك الأسباب -مهما بلغت- أقل بكثير مما عند أعدائهم.

ففي معركة بدر يتجلى التأييد الإلهي في صور متعددة ليتوج في النهاية بنصر عزيز: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١١، ١٢].

وفي فتح المدائن سخر الله نهر دجلة ليعبُر عليه المسلمون بخيولهم... فبعد انتصار القادسية العظيم -كما يقول ابن كثير في البداية والنهاية- دخل سعد بن أبي وقاص (نهر شير) ولكنه لم يجد فيها أحدًا ولا شيئًا مما يُغنم، بل قد تحول الفرس إلى المدائن وركبوا السفن، وضمُّوا السفن إليهم، ولم يجد سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئًا من السفن (لعبور نهر دجلة)، وأُخبر سعد بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن، وإنك إن لم تدركه قبل ثلاث فات عليك وتفارط الأمر. فخطب سعد المسلمين على شاطئ دجلة فحمد الله وأثنى عليه وقال:

إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تَخلُصون (تَصلُون) إليهم معه، وهم يخلُصون إليكم إذا شاؤوا فيناوشونكم في سفنهم، وإني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم، فقالوا جميعًا: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل، فندب سعد الناس إلى العبور.. وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: «**نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**»، ثم اقتحم

بفرسه دجلة واقتحم الناس، ولم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملئوا ما بين الجانبين، فلا يُرى وجه الماء من الفرسان والرجَّالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لِما حصل لهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده.. ولم يُعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له مالك بن عامر، فدعا صاحبه الله عَزَّوَجَلَّ وقال: اللهم لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي، فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه، فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه.

وعندما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا: ديوانًا ديوانًا، أي: مجانين مجانين. ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنسًا، بل تقاتلون جنًّا.. وخرج المسلمون من النهر ولم يغرق منهم أحد، ولم يفقدوا شيئًا، ودخلوا المدائن ولم يجدوا بها أحدًا[1].

جنود الله معه ولم يرهم!

حين وقعت الردة بعد وفاة النبي ﷺ كان الزبرقان بن بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن ثبتهم الله على الإسلام، وكان قد جمع الصدقة من قومه، وكان قومه يراودونه على رد الصدقة لهم بعد وفاة النبي ﷺ، فكان يعللهم ويجتهد في مد الوقت معهم، ويتحين الفرصة لكي يرسل الصدقات إلى خليفة رسول الله ﷺ.

فكان يأمر ابنه أن يسرح مع نعم الصدقة، فإذا كان المساء روحها، وإنه جاء بها ليلة عشاء، فضربه، وقال: ألا عجلت بها؟

ثم راح بها الليلة الثانية فوق ذلك قليلًا، فجعل يضربه، وجعلوا يكلمونه فيه،

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٥١٣). البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٧٠-٧٢) باختصار.

فلـــما كان اليوم الثالث قال: يا بني إذا سرحتها فصـــح في أدبارها وأُمَّ بها المدينة، فإن لقيك لاقٍ من قومك أو من غيرهم فقل أريد الكلأ، تعذر علينا ما حولنا.

فلـــما أن جاء الوقت الذي كان يـــروح فيه، لم يأتِ الغـــلام، فجعل أبوه يتوقعه ويقول لأصحابـــه: العجب لحبس ابني. فيقول بعضهم: نخـــرج فنتبعه. فيقول: لا والله.

فلما أصبح تهيأ ليغدو، فقال قومه: نغدو معك. فقال: لا يغدو معي منكم أحد، إنكم إن رأيتموه حلتم بيني وبين ضربه، وقد عصى أمري كما ترون. فخرج على بعير له سريعًا حتى لحق ابنه، ثم حدر النعم إلى المدينة.

فلـــما كان ببطن قناة لقيته خيـــل لأبي بكر، عليها ابن مســـعود، ويقال محمد بن مســـلمة، فلما نظروا إليه ابتدروه، وما كان معه، وقالوا له: أين الفوارس الذين كانوا معك؟ قال: ما معي أحد. قالوا: بلى، لقد كان معك فوارس، فلما رأونا تغيبوا.

فقال ابن مسعود: خلوا عنه فما كذب ولا كذبتم، **جنود الله معه، ولم يرهم**. فقدم على أبي بكر بثلاثمائة بعير، وكانت أول صدقة قُدِم بها على أبي بكر[1].

خلقَ اللهُ لهم نبعَ ماء

وفي حروب الردة كان العلاء بن الحضرمي يقود جيشًا للمسلمين، وقد نزل بهم منزلًا، فلم يســـتقر الناس عـــلى الأرض حتى نفرت الإبل بـــما عليها من زاد الجيش وخيامهم وشرابهم، وبقوا على الأرض ليس معهم شيء سوى ثيابهم -وذلك ليلًا- ولم يقـــدروا منها على بعير واحد، فركب الناس من الهم والغم ما لا يحد ولا يوصف،

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٩٤).

وجعل بعضهم يوصي إلى بعض، فنادى منادي العلاء فاجتمع الناس إليه، فقال:

أيها الناس ألستم المسلمين؟ ألستم في سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟

قالوا: بلى.

قال: فأبشروا فو الله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم، ونودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلى بالناس، فلما قضى الصلاة جثا على ركبتيه وجثا الناس، ونصب في الدعاء ورفع يديه وفعل الناس مثله حتى طلعت الشمس، وجعل الناس ينظرون إلى سراب الشمس يلمع مرة بعد أخرى وهو يجتهد في الدعاء، فلما بلغ الثالثة إذا قد خلق الله إلى جانبهم غديرًا عظيمًا من الماء القراح، فمشى ومشى الناس إليه فشربوا واغتسلوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل من كل فج بما عليها، لم يفقد الناس من أمتعتهم سلكًا، فسقوا الإبل عللًا بعد نهل. فكان هذا مما عاين الناس من آيات الله بهذه السرية»[1].

وتكرر التأييد الإلهي في دارين وذلك حين شرع العلاء بن الحضرمي في قسم الغنيمة ونفل الأنفال، وفرغ من ذلك وقال للمسلمين: اذهبوا بنا إلى دارين؛ لنغزو من بها من الأعداء.

فأجابوا إلى ذلك سريعًا، فسار بهم حتى أتى ساحل البحر؛ ليركبوا في السفن، فرأى أن الشقة بعيدة، لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداء الله، **فاقتحم البحر بفرسه، وهو يقول: يا أرحم الراحمين، يا حليم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي يا محيي الموتى، يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت يا ربنا.**

وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا، ففعلوا ذلك فأجاز بهم الخليج بإذن الله،

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٨).

يمشـــون على مثل رملة دَمْثَة، فوقها ماء لا يغمـــر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى رُكب الخيل، ومسيرته للسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر، فقاتل عدوه وقهرهم، واحتاز غنائمهم، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأول، وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مخبرًا، واستاق الذراري والأنعام والأموال.

ولم يفقد المسلمون في البحر شيئًا ســوى عليقة فرس لرجل من المسلمين، ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها، ثم قســم غنائم المســلمين فيهم، فأصاب الفارس ألفين والراجــل ألفًا، مع كثرة الجيش، وكتب إلى الصديــق فأعلمه بذلك، فبعث الصديق يشكره على ما صنع[1].

ولقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يعيشون مع هذه الثمار، ويستشعرون معيــة الله وتأييده لهم.. ومن ذلك ما كتبه أبو عبيــدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فتوح الشام:

«أخــبرك يا أمير المؤمنين أصلحك الله، أنا قدمنــا بلاد حمص وبها من المشركين عدد كثير، والمســلمون يزفون إليهم ببأس شديد، **فلما دخلنا بلادهم ألقى الله الرعب في قلوبهم، ووهن كيدهم، وقلم أظفارهم**، فســألونا الصلح وأذعنوا بأداء الخراج، فقبلنا منهم وكففنا عنهم، ففتحوا لنا الحصون واكتتبوا منا الأمان، وقد وجهنا الخيول إلى الناحية التي بها ملكهم وجنوده».

الملائكة تتكلم على ألسنتهم!

وقــال أنيس بن الحليس: بينا نحن محاصرون بهرســير بعد زحفهم وهزيمتهم، أشرف علينا رســول فقال: إن الملك يقول لكم: هــل لكم إلى المصالحة على أنَّ لنا ما

(١) ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٣٢٩).

يلينا من دجلة وجبلها، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم؟

فبدر الناس أبو مفرز الأسود بن قطبة، **وقد أنطقه الله، عَزَّوَجَلَّ، بما لا يدري ما هو ولا نحن، فأجابه بالفارسية ولا يعرف منها شيئًا هو ولا نحن!** فرجع الرجل ورأيناهم يقطعون إلى المدائن، فقلنا: يا أبا مفرز ما قلت له؟ قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق ما أدري ما هو، وإلا أني **علتني سكينة، وأرجو أن أكون أُنطقت بالذي هو خير**.

وانتاب الناس يسألونه حتى سمع بذلك سعد، فجاءنا فقال: يا أبا مفرز ما قلت له؟ فو الله إنهم لهراب. فحدثه بمثل حديثه إيانا، فنادى في الناس، ثم نهد بهم، فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج إلينا إلا رجل نادى بالأمان فأمّنّاه، فقال: ما بقي أحد فيها فما يمنعكم؟

فتسورها الرجال، وافتتحناها، فما وجدنا فيها شيئًا ولا أحدًا، إلا أسارى أسرناهم خارجًا منها، فسألناهم وذلك الرجل: لأي شيء هربوا؟

فقال: بعث إليكم الملك يعرض عليكم الصلح، فأجبتموه أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل أفريذون بأترج كوثي.

فقال الملك: وا ويلة ألا أرى الملائكة تكلم على ألسنتهم، ترد علينا وتجيبنا عن العرب، ووالله لئن لم يكن كذلك، ما هو إلا شيء ألقي على فيّ هذا الرجل لننتهي. فأرزوا (لجأوا) إلى المدينة القصوى[1].

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٥١١).

يا سارية، الجبل!

كان سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقود جيش للمسلمين في إحدى المعارك مع الفرس، فسار حتى أفضى إلى عسكرهم، فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء الله، ثم إنهم استمدوا، فتجمعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس، فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير، فرأى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تلك الليلة معركتهم وعددهم في ساعة من النهار، فنادى من الغد، الصلاة جامعة، حتى إذا كان في الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم، وكان أريهم والمسلمين بصحراء، وإن أقاموا فيها أحيط بهم وإن أرزوا (لجأوا واحتموا) إلى جبل من خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد، ثم قام فقال: أيها الناس، إني رأيت هذين الجمعين، وأخبر بحالهما، ثم قال:

يا سارية، الجبل الجبل، ثم أقبل عليهم، فقال: **إن لله** عَزَّوَجَلَّ **جنودًا، ولعل بعضها أن يبلغهم**.

ولما كان تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل، ففعلوا وقاتلوا القوم من وجه واحد، فهزمهم الله لهم، وكتبوا بذلك إلى عمر رحمه الله، وباستيلائهم على البلد ودعاء أهله وتسكينهم[1].

(١) تاريخ الطبري (٤/ ١٧٨).

ومن ثمار الإيمان

خامسًا: إيقاظ القوى الخفية

عندمـــا يتمكن الإيمان من القلـــب تزداد رغبة العبد في القيـــام بكل ما يحبه ربه ويرضاه، فتجده يتحدى الصعاب، ويتحمل الشدائد في سبيل ذلك.

.. الإيمان الحي يوقظ القوى الخفية داخل الإنسان ويجعله دومًا يتحدى أوضاعًا أقوى منه، ويجتاز مصاعب أعظم بكثير من حدود إمكاناته..

.. اجتمع يومًا أصحاب رســـول الله ﷺ في مكة، وكانوا قلة مستضعفين فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يُسمعهم إياه؟ فقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا أُسمعهم إياه.

فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلًا له عشيرة تحميه وتمنعه منهم إذا أرادوه بِشَر. فقال: دعوني فإن الله سيمنعني ويحميني.

ثم غدا إلى المســـجد حتى أتى مقام إبراهيـــم في الضحى، وقريش جلوس حول الكعبة، فوقف عند المقام وقرأ: بســـم الله الرحمن الرحيم رافعًا بها صوته: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١-٤].

ومضى يقرؤهـــا، فتأملته قريش وقالت: ماذا قال ابن أم عبـــد؟! تبًّا له، إنه يتلو بعض ما جاء به محمد، وقاموا إليه وجعلوا يضربون وجهه وهو يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه والدم يسيل منه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: والله ما كان أعداء الله أهون في عيني منهم الآن، وإن شـــئتم لأُغَادينَّهم

بمثلها غدًا، قالوا: لا، حسبك، لقد أسمعتهم ما يكرهون[١].

.. وهـــذا عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى أبناءه الثلاثة يتجهزون للقاء أعداء الله في أُحد، فعزم على أن يغدو معهم إلى الجهاد، لكن الفتية أجمعوا على منع أبيهم مما عزم عليه، فهو شيخ كبير طاعن في السن، وهو إلى ذلك أعرج شديد العرج، وقد عذره الله فيمـــن عذرهم، فقالوا له: يا أبانا، إن الله عذرك، فعلام تُكلف نفســـك ما أعفاك الله منه؟!

فغضب الشيخ من قولهم، وانطلق إلى رسول الله ﷺ يشكوهم، فقال: يا نبي الله، إن أبنائي هؤلاء يريدون أن يحبسوني عن هذا الخير وهم يتذرعون بأني أعرج، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة.

فقال رسول الله ﷺ لأبنائه: «**دَعُوهُ؛ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ**». فخلوا عنه إذعانًا لأمر رسول الله ﷺ.

ومـــا إن أزِف وقت الخروج، حتى ودع عمرو بن الجمـــوح زوجته، ثم اتجه إلى القبلة ورفع كفيه إلى السماء وقال: «اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي خائبًا». ثم انطلق يُحيط به أبناؤه الثلاثة..

ولما حمي وطيس المعركة، وتفرق الناس عن رســـول الله ﷺ شـــوهد عمرو بن الجموح يمضي في الرعيل الأول[٢] ويثب على رجله الصحيحة وثبًا، وهو يقول: إني لـمُشتاق إلى الجنة، إني لـــمُشتاق إلى الجنة، وكان وراءه ابنه «خلَّاد» وما زال الشيخ وفتاه يجاهدان عن رســـول الله ﷺ حتى خرَّا صريعين شـــهيدين على أرض المعركة،

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٥)، وذكره أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (٢/ ٨٣٧ برقم: ١٥٣٥).
(٢) المجموعة التي في المقدمة.

ليس بين الابن وأبيه إلا لحظات[١].

وإن تعجب فاعجب من حال هذا الصحابي

كان أبو عقيل الأزرقـــي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حليف الأنصار، بدريًّا من أول من خرج يوم اليمامة، رُمي بســـهم فوقع بين منكبيه وفؤاده، فشطب في غير مقتل، فأخرج السهم، ووهن شقه الأيسر، وكانت فيه، وهذا أول النهار وجروه إلى الرحل، فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم، وأبو عقيل واهن من جرحه، سمع معن بن عدي يصيح: يا للأنصار، الله الله والكرة على عدوكم، وأعنق -أي أسرع- معن بن عدي يقدم القوم، وذلـــك حين صاحت الأنصـــار: أخلصونا، فأخلصـــوا رجلًا رجلًا، يتميزون.

قال أبو عمرو: ونهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد يا أبا عقيل؟ ما فيك قتال.

قال: قد نوه المنادي باسمي. فقلت: إنما يقول: يا للأنصار، لا يعني الجرحى.

قال: فأنا رجل من الأنصار، وأنا أجيب ولو جبنوا.

قال ابن عمر: فتحزم أبو عقيل، فأخذ السيف بيده اليمنى مجردًا، ثم جعل ينادي: يا للأنصار، كَرَّة كيوم حنين، فاجتمعوا جميعًا يقدمون المســـلمين دريئة (ستارًا) دون عدوهم، حتى أقحموا عدوهم الحديقة، فاختلطوا واختلفت الســـيوف بيننا وبينهم، فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب، فوقعت إلى الأرض، وبه أربعة عشر جرحًا، كلها قد خلصت إلى مقتل، وقُتِل عدو الله مسيلمة.

قال ابن عمر: فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق، فقلت: يا أبا عقيل.

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٤٦).

فقال: لبيك، بلسان ملتاث، ثم قال: لمن الدبرة؟ (النصر) فقلت: أبشر ورفعت صوتي، قد قتل عدو الله.

فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله، ومات، رحمه الله[١].

أعمى يحمل الراية

ولك أن تعجب كذلك من إصرار عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الجهاد وهو أعمى، وسفره مع جيش سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى القادسية لملاقاة الفرس، وهو لابس درعه، مستكمل عدته، فيتقدم ليحمل راية المسلمين... وهو أعمى! ويحافظ عليها إلى أن قُتل شهيدًا، وهو يحتضن الراية[٢]!.

شلَّال الإيمان

رُوي في التاريخ أن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخذ راية رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة، فقاتل بها، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه، فعقرها ثم قاتل، فقطعت يمينه، فأخذ الراية بيساره فقطعت، فاحتضن الراية بعضديه، حتى قتل وله ثلاث وثلاثون سنة، ووجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة، ما بين ضربة سيف وطعنة رمح، كلها من الأمام، ومات فتى الفتيان وهو يحنُّ إلى الجنة، ويتغنى بنعمائها، ويستهين بزخارف الدنيا.

هل يُتصور هذا من غير عقيدة تتغلغل في الأحشاء، ونشوة إيمانية تسري في العروق، ولذة روحية تتغلب على الشعور بالألم؟!

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء: (٢/ ١٣٢).
(٢) صور إيمانية من حياة الصحابة والتابعين. مصطفى أبو المعاطي (١/ ١٣١، ١٣٢).

إن هذا الشـــلَّال من الإيمان والاحتساب، ورجاء الأجر والثواب، والشوق إلى الجنة، والحنين إلى الشهادة، والحب لله ولرسوله وللمؤمنين؛ لازال بكرًا، ولم يُستخدم بعد، ولم يقتبس منه هذا التيار المضيئ المنير[١].

• • •

(١) نفحات الإيمان لأبي الحسن الندوي.

ومن ثمار الإيمان

سادسًا: الرغبة في الله

كلما ازداد الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ازدادت ثقة العبد فيه سبحانه وبأنه مالك الملك، المتصرف في شؤون كل ذرة فيه، العليم الخبير الذي لا تغيب عنه أي حركة أو سكنة في هذا الكون.. القادر المقتدر، الغفور الرحيم...

وبنمو هذه الثقة في القلب تزداد رغبة العبد في ربه فيصبح ذهنه مشغولًا بالتفكير فيه، وقلبه حاضرًا معه.. فيتوجه إليه بالأعمال، ويتزين له بالأفعال التي ترضيه.. يُكثر من مناجاته وبث أشواقه إليه... يسترضيه كلما قصَّر أو زلَّت قدمه... يطلب منه المساعدة في كل أموره، والشهادة على ما يحدث له.

وفي المقابل: يصغُر حجم الناس في نظره وتقل الثقة فيهم حتى تنمحي من حيث كونهم لا يملكون له نفعًا أو ضرًّا، فلا يتزين لهم في أفعاله، ولا يسعى لعلو منزلته عندهم، بل يستغني عنهم، وينقطع من قلبه الطمع فيهم؛ ومن ثَّم لا يرائيهم بأقواله أو أفعاله..

> **إن الرياء صورة بغيضة تعكس جهلًا عظيمًا بالله عَزَّوَجَلَّ، وضعفًا شديدًا في الإيمان به.. هذه الصورة يمكنها أن تضمحل وتنمحي تلقائيًّا بزيادة الإيمان الحقيقي بالله والثقة فيه.**

الراغبون في الله

■ يقول أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله.. غبتُ عن أول قتال قاتلته المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين

لَيَرَيَنَّ الله مني ما أصنع.

فلما كان يوم أُحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني: المسلمين)، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني: المشركين)، ثم تقدم فاستقبل سعد بن معاذ، فقال: يا سعد، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها دون أحد. قال سعد: فما أستطيع أن أصف ما صنع[١].

■ ويقول سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما كانت «أحد» لقيَني عبد الله بن جحش وقال: ألا تدعو الله؟ فقلت: بلى. فخلونا في ناحية، فدعوت، فقلت: يا رب إذا لقيت العدو فلَقِّني رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه، فأمَّن عبد الله بن جحش على دعائي، ثم قال: اللهم ارزقني رجلًا شديدًا حرده، شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت: فيم جُدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت.

قال سعد: كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار، وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط[٢].

.. وعندما أراد مشركو مكة قتل خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلب منهم أن يتركوه ليركع ركعتين، فوافقوا. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله، لولا أن تظنوا أني إنما طوَّلت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة. ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه قال: اللهم إنَّا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يُصنع بنا..

(١) البخاري (٤/ ١٩ برقم: ٢٨٠٥).
(٢) المستدرك على الصحيحين (٢/ ٨٦ برقم: ٢٤٠٩)، حلية الأولياء (١/ ١٠٨).

وبعد أن صلبوه أنشد شعرًا قال فيه:

فذا العرش صبِّرني على ما يُراد بي فقد بضعوا لحمي وقد بان مطمعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمزَّع

لعمري ما أحفِلْ إذا مت مسلمًا على أي حال كان في الله مضجعي[1].

رغبة معاذ بن جبل في الله

ومن خبر معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الطاعون أنه رجع إلى منزله فاشتد به وجعه، وجعل أصحابه يختلفون إليه، فإذا أتوه أقبل عليهم فقال لهم: **اعملوا وأنتم في مهلة وحياة وفي بقية من آجالكم، من قبل أن تمنوا العمل فلا تجدوا إليه سبيلًا، وأنفقوا مما عندكم من قبل أن تهلكوا وتدعوا ذلك ميراثًا لمن بعدكم، واعلموا أنه ليس لكم من أموالكم إلا ما أكلتم وشربتم ولبستم وأنفقتم فأعطيتم فأمضيتم، وما سوى ذلك فللوارثين.**

فلما اشتد به وجعه جعل يقول: **رب اخنقني خنقك، فأشهد أنك تعلم أني أحبك**[2].

• • •

(١) جاءت قصة قتل خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سيرة ابن هشام (٢/ ١٧٢) والأبيات (ص: ١٧٦).

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٣١٥).

ومن ثمار الإيمان

سابعًا: اختفاء الظواهر السلبية

عندما يضعف الإيمان: يعلو الهوى ويسيطر على الإرادة.

والهوى هو كل ما تميل إليه النفس، أي أن غلبة الهوى معناها سيطرة النفس بأطماعها على إرادة الإنسان وقلبه، فيصبح أسيرًا لها.

فالنفس شحيحة تحب الاستئثار بكل ما تظن أن فيه نفعها فينشأ عن هذا الهوى -عندما يتمكن من القلب- الطمع والظلم والبخل والتعدي على حقوق الآخرين.

والنفس تريد دومًا العلو على الآخرين، وتكره أن يتميز عليها أحد فينتج عن ذلك الحسد والحقد.

والنفس تكره الظهور بمظهر المخطئ، فينشأ عن هذا الهوى عندما يسيطر على القلب: الكذب والغش والخداع..

والنفس تكره المشاقّ والتكاليف، فينشأ عن ذلك: الفسوق وعدم القيام بالأوامر الشرعية...

وهكذا تنطلق جميع الظواهر السلبية والمشكلات من ضعف الإيمان وغلبة هوى النفس.

والحل الأول والأمثل لعلاج المجتمع المسلم من ظواهره السلبية إنما يكون بإصلاح الإيمان، فكلما ازداد الإيمان في القلوب انحسر تأثير الهوى عليها، وقويت الإرادة ودفعت صاحبها لمكارم الأخلاق ومعاليها.

تأمل قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [ص: ٢٤].

إيقاظ الإيمان هو البداية الصحيحة لحل المشكلات

إن العمل على زيادة الإيمان في القلوب هو الحل الأول لكثير من المشكلات، ففي ظل الأجواء الإيمانية تذعن القلوب لداعي العفو والصفح والتسامح والتغاضي عن الهفوات، فالإيمان يصنع المعجزات، ويروض النفوس؛ لذلك فإنه ليس من المناسب أن نحكم على شخص ما حكمًا نهائيًّا من خلال سلوكياته التي قد تبدو منه في حالة ضعف إيمانه، وليس من المناسب كذلك أن تدفعنا تلك التصرفات إلى مواجهته واتخاذ موقف مضاد منه؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى اجتهاده في الانتصار لنفسه وإثبات صحة موقفه، فتزداد الأمور تعقيدًا؛ لذلك فالمقترح في مثل هذه الحالات أن تكون البداية هي العمل على إيقاظ الإيمان في القلوب، فتتحول تدريجيًّا الأجواء المحيطة إلى أجواء صحية يسعى فيها الجميع إلى مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ.

ففي مثل هذه الأجواء الإيمانية تصبح -في الغالب- نفس المرء وراءه وليست أمامه، عند ذلك ستتغير الدوافع، وتنتهي الكثير من المشكلات تلقائيًّا بإذن الله.

ليس معنى هذا هو انعدام المشكلات بين الأفراد، فالطبيعة البشرية وما تحمله من ضعف تأبى ذلك، ولكنها -إن حدثت- تكون هينة، عارضة سرعان ما تزول عندما يسمع أصحابها حادي الإيمان ينادي عليهم أن اتقوا الله: ﴿ **نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ** ﴾ [ص: ٣٠].

فعلى سبيل المثال: عندما عزم أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على قطع النفقة التي كان ينفقها على مسطح بن أثاثة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأنه كان ممن تكلم في حادثة الإفك نزل القرآن ليُذكّره وغيره بفضيلة العفو بقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ**

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنَّا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم أرجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا(١).

.. وعندما اختلف رجلان على ميراث بينهما وذهبا يحتكمان إلى رسول الله ﷺ، فماذا فعل معهما؟!

عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد دُرِست ليس بينهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَإِنِّي أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا إِسْطَامًا فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما: حقي لأخي. فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَّا إِذْ قُلْتُمَا فَاذْهَبَا فَاقْتَسِمَا، ثُمَّ تَوَخَّيَا الْحَقَّ، ثُمَّ اسْتَهِمَا، ثُمَّ لِيَتَحَلَّلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ صَاحِبَهُ**»(٢).

الرجوع إلى الحق

يحكي أحد الدعاة أنه اختصم إليه رجلان، كان بينهما شراكة وتجارة، وقد أخذ أحدهما من الآخر أوراقًا ومستندات تثبت حقه ويرفض أن يردها إليه ولا يملك هذا الرجل إثباتًا لحقه بدونها، وحين اجتمعا عند هذا الداعية لم يتطرق معهما إلى أي تفاصيل تخص المشكلة، ولا ما حدث بينهما، بل أخذ يحدثهم عن اليوم الآخر، ومشاهده، وأن الحساب حينها سيكون بالحسنات والسيئات لا بالدرهم ولا الدينار،

(١) البخاري (٨/ ١٣٨برقم: ٦٦٧٩)، مسلم (٤/ ٢١٢٩ برقم: ٢٧٧٠).

(٢) مسند أحمد (٤٤/ ٣٠٨ برقم: ٢٦٧١٧)، السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٠٨ برقم: ١١٣٥٩)، مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٥٤١ برقم: ٢٢٩٧٤). والإسطام: هي الحديدة التي تُحرَّك بها النار.

وأخذ يطرق على مشـــاعرهم ويخوفهم من اليوم الآخر والسؤال أمام الله عَزَّوَجَلَّ، ظل يذكرهم بذلك حتى تأثروا تأثرًا شديدًا، وقام الخصم الأول من فوره واتصل بسائقه وطلب منه إحضار الأوراق والمســتندات مــن المنزل، وســلمها لصاحبه وانتهت الخصومة بفضل الله ورجع إلى الحق.

غنائم بدر

عندما انتصر المســلمون على المشركين في غزوة بدر كانت هناك غنائم كثيرة؛ مما أدى إلى اختــلاف البعض حول كيفية توزيعها، وظن بعض الشــباب أنهم أحق مِن غيرهم من الشيوخ..

فكيف تمَّت معالجة هذه المشكلة؟

نزلت ســورة الأنفال وبدأت بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. فخرجت الغنائم من أيديهم تمامًا، وأصبحت لله ورسوله.

ثم بدأت الآيات تذكِّرهــم بالإيمان وعلاماته، وأوردت بعض صفات المؤمنين ليعرض كل منهم نفســه عليها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

فهل يفكر أحد بعد هذه الآيات في الغنائم، أم أنه سيفكر في نفسه؟ وأين هو من هذه الصفات؛ وهل هو مؤمن حقًّا أم لا؟

ثم تمضي السورة فتذكرهم بما مَنَّ الله عليهم من نصر عظيم في هذه الغزوة المباركة، وأن هذا النصر كان من عند الله عَزَّوَجَلَّ وحده، لا من عند أنفسهم، فلقد غشيهم النعاس، وأنزل عليهم الغيث، وأمدهم بالملائكة، وسدد رميهم، وثبَّت أقدامهم، وأوهن كيد عدوهم.

ثم تُذكرهم الآيات بضرورة الاستجابة لله والرسول، وتخوِّفهم بأن الله يحُول بين المرء وقلبه.

وتعود الآيات بذاكرتهم إلى أيام مكة حين كانوا مستضعفين: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وبعد أن تجردت القلوب لله، وراجع كل واحد منهم إيمانه، ونسي أمر الغنائم.. جاءت الآية الحادية والأربعون لتتحدث عن كيفية تقسيم الغنائم: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

غنائم حنين والطائف

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في الفيء الذي

أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال رسول الله ﷺ: «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟**» قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي، قال: «**فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ**»، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدتُمُوهَا عَلَيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟**» قالوا: بلى، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل، ثم قال: «**أَلَا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟**»

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل، قال: «**أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ**»، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا»[1].

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩٩، ٥٠٠)، والرحيق المختوم (ص: ٤٧٣، ٤٧٤).

أخي.. ألا ترى كيف عالج رسول الله ﷺ هذه المشكلة الطارئة؟! وكيف كان التذكير الإيماني هو الحل لها؟!

عمر والقضاء

ويكفيك لتأكيد هذا المعنى أن تعلم أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما تولى الخلافة قام بتعيين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاضيًا على المدينة، فمكث عمر سنة لم يفتتح جلسة، ولم يختصم إليه اثنان: قَالَ سُفْيَانُ- وَذَكَرَهُ عَنْ مِسْعَرٍ: لَمَّا وُلِّيَ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَنَا أُكْفِيكَ الْـمَالَ -يَعْنِي الْجَزَاءَ- وَقَالَ عُمَرُ: أَنَا أُكْفِيكَ الْقَضَاءَ: فَمَكَثَ عُمَرُ سَنَةً لا يَأْتِيهِ رَجُلانِ[1].

• • •

(١) تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٤٢٦)، الكامل في التاريخ (٢/ ٢٦٣).

ومن ثمار شجرة الإيمان المباركة

ثامنًا: التأثير الإيجابي في الناس

ليس على المسلم فقط أن يكون صالحًا في نفسه، بل عليه أن يعمل على إصلاح غيره: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

فالدعوة إلى الله هي عمل الرسل وأتباعهم: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

> **ونجاح الداعية في دعوته للناس يعني التأثير الإيجابي فيهم.. هذا التأثير يستلزم وجود روح حي، ورغبة جارفة تهيمن على قلبه تستحثه لإنقاذ الآخرين، فيخرُجُ كلامه محملًا بالحرقة والشفقة عليهم.. ولا يمكن التلبس بهذه الحالة إلا من خلال يقظة الإيمان وتمكنه في قلبه.**

.. الإيمان الحي يدفع صاحبه للبدء بنفسه في القيام بالعمل الصالح قبل أن يدعو الناس إليه، فيُصدق قوله فعله؛ ومن ثَمَّ يزداد تأثيره في الآخرين.

يقول صاحب الظلال: الكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال، ويؤيدها العمل هي الكلمة المثمرة، التي تُحرك الآخرين إلى العمل.

ويقــول: أيما داعية لا يصدق فعله قوله، فــإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب مهما كانت كلماته بارعة، وعباراته بليغة[١].

متى نؤثر في الناس؟

إن تغيير حال الأمة الأليم لن يتم إلا إذا غيَّر أبناؤها ما بأنفسهم، ألم يقل سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؟ [الرعد: ١١].

والواقــع يخبرنا بأن هذا التغيير ليس بالأمر اليســير.. فموجــة المادية في عُلو، وانجذاب المســلمين نحو طين الأرض في ازدياد، ولكي يتم الأخذ بأيديهم إلى تغيير ما بأنفســهم، وتقوية الإيمان في قلوبهم، وتصحيــح الأفكار والمعتقدات في عقولهم، والتأثير الإيجابي الدائم فيهم؛ لا بد من وجود رجال مؤمنين إيمانًا قويًّا راسخًا كالجبال يصمد أمام أمواج المادية العاتية، ويُعين الناس على الخروج من بحر الشهوات.

من هنا نقول بــأن البداية الصحيحــة للتغيير هي وجود الشــخص المتوهج، صاحب الروح اليقِظة والإيمان الحي، وكــما قيل: إذا وُجِد المؤمن الصحيح وُجِدَت معه أسباب النجاح جميعًا.

القلوب بيد الله

إن الــذي يفتح القلوب لــكلام الدعاة هــو الله عَزَّوَجَلَّ فــإن رأى منهم صدقًا وإخلاصًا، ورغبة في نفع المدعوين، وشــفقة صادقة عليهم فإنه ســبحانه يفتح لهم -بفضله- قلوبهم.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٦٩).

وكلما علت منزلة العبد عند ربه بالإيمان أحبه الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثَمَّ وضع له القبول في الأرض كما قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»(١).

أصلح نفسك تُصلَح لك رعيتك

.. انظر إلى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يمشي بجانب راحلة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يوصيه قبل سفره على رأس الجيش المتوجه إلى الشام قائلًا: «يا عمرو، اتقِ الله في سرائرك وعلانيتك واستحيه، فإنه يراك ويرى عملك.. فكن من عمال الآخرة، وأَرِد بما تعمل وجه الله، وكن والدًا لمن معك، ولا تكشفن الناس عن أستارهم، واكتفِ بعلانيتهم.. وإذا وعظت أصحابك فأوجز، وأصلح نفسك تُصلَح لك رعيتك»(٢).

.. ولما حضر أبا بكر الموت أوصى باستخلاف عمر بن الخطاب، ثم بعث إلى عمر فدعاه فكان مما وصاه به: إن أول ما أحذرك نفسك، وأحذرك الناس.. فإنهم لن يزالوا خائفين لك فرقين منك ما خفت الله وفَرَقْته(٣).

وعن المِسوَر بن مخرمة قال: كنا نتعلم من عمر بن الخطاب الورع(٤).

(١) البخاري (٨/ ١٤ برقم: ٦٠٤٠، ٤/ ١١١ برقم: ٣٢٠٩)، مسلم (٤/ ٢٠٣٠ برقم: ٢٦٣٧).
(٢) حياة الصحابة (١/ ٥٤٤).
(٣) حياة الصحابة (١/ ٥٤١).
(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٩٠).

ومن ثمار الإيمان

تاسعًا: اتخاذ القرارات الصعبة

يتعــرض المرء في حياته لمواقف تحتاج منه إلى اتخــاذ قرارات قد ينتج عنها نقص يلحق به، أو أذى يُصيبــه، أو ضيق الآخرين منه؛ لذلك تجده مــترددًا قبل اتخاذها، ويظــل يُفكِّر فيهــا، ويوازن بين الواجــب الديني الذي يحُثُّه عــلى فعل الشيء وبين الأضرار التي قد تترتب على فعله؛ مما قــد يؤدي في النهاية إلى ترك القيام به، فيُفوِّت على نفسه مصالح كثيرة في دنياه وآخرته.

.. هــذا الحال يعكس ضَعف القلب وعدم تمكن الإيــمان منه، وفي المقابل؛ كلما ازداد الإيمان قَوِي القلب وســهل على صاحبه اتخــاذ القرارات التي قد يكون لها من الناحية الظاهرية تأثير سلبي عليه..

ومن أمثلة هذه القرارات: الشــهادة على النفس أو الآخرين، الاعتراف بالخطأ، قبول النُّصــح، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكــر للأصدقاء وأصحاب المناصب، الإنفاق في وقت العُسرة، التضحية بما يحبه المرء..

نماذج مشرقة

وإليك -أخي القارئ- بعض الأمثلــة العملية من حياة الصحابة، والتي تؤكد هذا المعنى:

■ قــال عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رأيت عمر بــن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك ذلك، فقال: لــمَّا أتتني الوفود بالسمع والطاعة دخلت في نفسي نخوة، فأحببت أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة

من الأنصار فأفرغها في إنائها[١].

■ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا أمير المؤمنين، عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذًا، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فحمل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم ويُقدم ابنه معه، فقدما، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضربه، فجعل يضربه بالسوط، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين. قال أنس: فضرب، فوالله ضربه ونحن نُحب ضربه فما أقلع عنه حتى تمنينا أن يُرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع السوط على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذي ضربني، وقد استقدت منه، فقال عمر لعمرو: مُذ كم تعبَّدتم الناس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحرارًا؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم أعلم ولم يأتني[٢].

■ وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: اشتريت إبلًا وارتجعتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق فرأى إبلًا سمانًا فقال: لمن هذه الإبل؟ قيل: لعبد الله بن عمر، قال: فجعل يقول: يا عبد الله بن عمر بخ بخ ابن أمير المؤمنين، قال: فجئته أسعى فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما هذه الإبل؟ قال: قلت: إبل أنضاء اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون، قال: فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، يا عبد الله بن عمر اغد على رأس مالك واجعل باقيه في بيت مال المسلمين[٣].

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمة، للدكتور سيد حسين العفاني (٥/ ٤٣٥).

(٢) رواه ابن عبد الحكم في (فتوح مصر ١/ ٢٢٥)، كنز العمال (٣٦٠١٠).

(٣) السنن الكبرى (٦/ ٢٤٣ برقم: ١١٨١١)، جامع الأحاديث للسيوطي (٢٥/ ٣٨٤ برقم: ٢٨٢٠٢).

إسداء النصيحة

.. بعد انتصارات خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتتالية في العراق بعث إليه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برسالة تهنئة ونصيحة، فقال فيها:

> **«فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة، فأتم يتم الله لك، ولا يدخلنك عُجب فتخسر وتُخذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المَنُّ وهو ولي الجزاء».**

.. وعندما أمَّر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على حرب العراق أرسل إليه وأوصاه فقال:

لا يغرنَّك من الله أن قِيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا الطاعة، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعاقبة ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ منذ بُعث إلى أن فارقنا، فالزمه فإنه الأمر. هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنت من الخاسرين[1].

الانتصاف من النفس

.. كان لعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عبد، فقال له: إني كنت عركت أُذنك فاقتص مني، فأخذ بأذنه ثم قال عثمان: اشدد، يا حبذا قصاص الدنيا، لا قصاص الآخرة[2].

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٣٠٦)، البداية والنهاية (٧/ ٤٢)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٤٠٨)، وحياة الصحابة (١/ ٥٤٨).

(٢) حياة الصحابة (١/ ٥٣٧)، نقلًا عن «الرياض النضرة في مناقب العشرة» للمحب الطبري (٢/ ١١١).

.. وعن إياس بن سلمة عن أبيه قال: مرَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في السوق ومعه الدرة، فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي، فقال: أمط عن الطريق. فلما كان في العام المُقبل لقيني فقال: يا سلمة، تُريد الحج؟ فقلت: نعم. فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ست مائة درهم وقال: استعن بها على حجِّك، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك. قلت: يا أمير المؤمنين ما ذكرتها. قال: وأنا ما نسيتها[١].

ثبات أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وجه الردة

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لما توفي رسول الله ﷺ، نجم النفاق وارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم، **حتى جمعهم الله على أبي بكر، فلقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها**، فو الله ما اختلفوا فيه من أمر إلا طار أبي بعلائه وغنائه[٢].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة، قال: لما توفي رسول الله ﷺ، واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»؟

فقال أبو بكر: **والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم على منعه**، فقال عمر بن الخطاب: فو الله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق[٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٧٨)، وحياة الصحابة (١/ ٥٣٦).

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٨٨).

(٣) البخاري (٤/ ٤٨ برقم: ٢٩٤٦، ٩/ ١٥ برقم: ٦٩٢٤)، مسلم (١/ ٥١ برقم: ٢٠).

قال عمر بن الخطاب: والله لرجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعًا في قتال أهل الردة.

عدي بن حاتم يقف في وجه قومه

وذكر ابن إسحاق: أن عدي بن حاتم كانت عنده إبل عظيمة اجتمعت له من صدقات قومه عندما توفي رسول الله ﷺ، فلما ارتد الناس وارتجعوا صدقاتهم، وارتدت بنو أسد، وهم جيرانهم، اجتمعت طيء إلى عدي بن حاتم، فقالوا: إن هذا الرجل قد مات، وقد انتقض الناس بعده، وقبض كل قوم ما كان فيهم من صدقاتهم، فنحن أحق بأموالنا من شُذَّاذ الناس.

فقال: ألم تعطوا من أنفسكم العهد والميثاق على الوفاء طائعين غير مكرهين؟

قالوا: بلى، ولكن قد حدث ما ترى، وقد ترى ما صنع الناس.

قال: والذي نفس عدي بيده، لا أخيس[١] بها أبدًا، ولو كنت جعلتها لرجل من الزنج لوفيت له بها، فإن أبيتم لأقاتلنكم -يعني على ما في يده وما في أيديهم- فليكونن أول قتيل يقتل على وفاء ذمته عدي بن حاتم، أو يسلمها، فلا تطمعوا أن يَسُبَّ حاتمٌ في قبره عديًّا ابنه من بعده، فلا يدعونكم عذر عاذر إلى أن تعذروا[٢]، فإن للشيطان قادة عند موت كل نبي، يستخف لها أهل الجهل حتى يحملهم على قلائص الفتنة، وإنما هي عجاجة[٣] لا ثبات لها، ولا ثبات فيها، إن لرسول الله ﷺ خليفة من بعده يلي هذا الأمر، وإن لدين الله أقوامًا سينهضون ويقومون به بعد رسول الله ﷺ، كما

(١) أي لا أحلف ولا أنقض عهدي. انظر تاج العروس للزبيدي (ج١٦ ص: ٤١) ط دار الهداية.
(٢) أي لا يجعلنكم ذنب مذنب أن تذنبوا. انظر تاج العروس مادة (عذر) (ج١٢ ص: ٥٤٢).
(٣) العجاج هو الغبار الذي تثيره الرياح ومفرده عجاجة.. تاج العروس (ج٦ ص: ٩٠).

قاموا بعهده وذو بيته في السماء[١]، لئن فعلتم ليقارعنكم على أموالكم ونسائكم بعد قتل عدي وغدركم، فأي قوم أنتم عند ذلك.. فلما رأوا منه الجد، كفوا عنه، وسلموا له[٢].

أبو دجانة يقاتل وحده!

وكان أبو خيثمة النجاري يقول: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة تنحيت ناحية، وكأني أنظر إلى أبي دجانة يومئذٍ ما يولي ظهره منهزمًا، وما هو إلا في نحور القوم، حتى قُتل رحمه الله، وكان يختال في مشيته عند الحرب سجية، ما يستطيع غير ذلك.

قال: وكرت عليه طائفة من بني حنيفة، فما زال يضرب بالسيف أمامه وعن يمينه وعن شماله، فحمل على رجل فصرعه، وما ينبس بكلمة[٣]، حتى انفرجوا عنه ونكصوا على أعقابهم، والمسلمون مولون، وقد ابيض ما بينهم وبينه، فما ترى إلا المهاجرين والأنصار، لا والله ما أرى أحدًا يخالطهم، فقاموا ناحية، وتلاحق الناس، فدفعوا حنيفة دفعة واحدة، فانتهينا بهم إلى الحديقة، فأقحمناهم إياها.

فقال أبو دجانة: ألقوني على الترسة حتى أشغلهم، فكانوا قد أغلقوا الحديقة، فأخذوه فألقوه على الترسة، حتى وقع في الحديقة، وهو يقول: لا ينجيكم منا الفرار، فضاربهم حتى فتحها، ودخلنا عليه مقتولًا رحمه الله[٤].

• • •

(١) أي: والذي بيته في السماء، فهو قسم عند قبيلة طيء.
(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٩٥).
(٣) ما ينبس بكلمة: ما ينطق بأي كلمة.
(٤) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ١٢٦).

ومن ثمار الإيمان

عاشرًا: الشعور بالسكينة والطمأنينة

الإيمان الحق بالله عَزَّوَجَلَّ يعني: الثقة به سبحانه ربًّا قادرًا على فعل أي شيء.. قريبًا مجيبًا.. حاضرًا غير غائب.. عظيمًا جليلًا.. رؤوفًا رحيمًا.

وكلما تمكنت هذه الثقة في قلب العبد تبددت منه المخاوف التي ترهب الناس، كالخوف من سطوة الظالمين، والخوف من المستقبل المجهول وما تخبئه الأيام.

وكلما ضعف الإيمان، وقلت الثقة زادت المخاوف، وظهرت أمارات الهلع والفزع والاضطراب عند التعرض لابتلاء أو نقص أو تضييق، ألم يقل سبحانه: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾؟ [آل عمران: ١٥١].

فالمشرك بالله يعاني من ضعف بل انعدام الثقة به سبحانه، وتظهر الثمرة المُرة لهذا الشرك عند النقص والابتلاء: رعبًا وفزعًا وهلعًا.

.. يقول ابن تيمية: الخوف الذي يحصل في قلوب الناس، (كالخوف على فوات الرزق، والخوف من المستقبل المجهول) هو الشرك الذي في قلوبهم[1].

وفي المقابل تجد المؤمن هادئ النفس، رابط الجأش، مطمئن القلب عند تعرضه للمحن والبلايا والأقدار المؤلمة: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ، ١٧٤].

(١) رسائل ابن تيمية في السجن.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

من هنا ندرك معنى القول بأن: «حسبنا الله ونعم الوكيل» هي كلمة المؤمنين عند مواجهة المواقف الصعبة.

وكلما ازداد الإيمان ازدادت الثقة بالله حتى تصل لذروتها فتصبح ثقة مطلقة يقينية أشد رسوخًا من الجبال الرواسي، وتظهر آثارها وقت الأحداث المتشابكة والعصيبة، كمثل ما حدث لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما خرج مع بني إسرائيل فرارًا من فرعون لكنه أدركهم بجنوده ليصبح البحر أمامهم وفرعون وراءهم فيقول أتباعه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

فيجيب عليهم بهدوء الواثق في ربه: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وفي رحلة الهجرة وبينما كان الرسول ﷺ وصاحبه في غار ثور؛ إذ بالمشركين يصلون إلى فم الغار، فيخاف أبو بكر خوفًا شديدًا على رسول الله ﷺ، وعلى الدعوة، ويقول لرسول الله ﷺ: يا نبي الله لو أن أحدهم طأطأ بصره رآنا.. إن قُتلتُ فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتلتَ أنت هلكت الأمة، ليفاجأ بأن رسول الله ﷺ لم يتأثر بهذه المخاوف، بل كان هادئ النفس، رابط الجأش، على ثقة مطلقة بالله عَزَّوَجَلَّ، وبدا ذلك واضحًا من إجابته على ما أثاره أبو بكر من مخاوف: «**اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانُ اللهُ ثَالِثُهُمَا.. لِا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**»(١).

(١) البخاري (٤/ ٢٠٢ برقم: ٣٦١٥)، والقصة بتمامها في سيرة ابن هشام، والرحيق المختوم.

طمأنينة القلب

من ثمار الإيمان العظيمة تلك الطمأنينة والسكينة التي يسكبها في القلب، فتجده ساكنًا عند جريان الأحداث سكون الواثق بالله، المطمئن به -سبحانه- لذلك عندما ذهب عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى رسول الله ﷺ، ليخبره بأنه تحت وطأة التعذيب والإيذاء أُكره على النيل من رسول الله ﷺ، وذكر آلهة الكفار بخير، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أنه سأله: «**فَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**»، فقال عمار: أجد قلبي مطمئنًّا بالإيمان، فقال رسول الله ﷺ: «**فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ**»(١).

.. وعندما أسرت الروم عبد الله بن حذافة السهمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له الطاغية: تنصَّر وإلا ألقيتك في البقرة (وعاء من نحاس)، قال: ما أفعل.. فدعا بالبقرة النحاس فمُلئت زيتًا، وأُغليت، ودعا رجلًا من أسرى المسلمين فعُرض عليه النصرانية، فأبى، فألقاه في البقرة فإذا عظامه تلوح، وقال لعبد الله: تنصَّر وإلا ألقيتك، قال: ما أفعل، فأمر به أن يُلقى في البقرة فبكى، فقالوا: قد جزع، قد بكى. قال: ردوه، فقال عبد الله: لا ترى أني بكيت جزعًا مما تريد أن تصنع بي، ولكني بكيت حيث ليس لي إلا نفس واحدة يُفعل بها هذا في الله، كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة فيَّ، ثم تُسلَّط عليَّ فتفعل بي هذا، قال: فأعجب منه، وأحب أن يطلقه، فقال: قبِّل رأسي وأطلقك، قال: ما أفعل، قال: قبِّل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين، قال: أما هذه فنعم، فقبل رأسه وأطلقه وأطلق معه ثمانين من المسلمين، فلما قدِموا على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام إليه عمر فقبَّل رأسه، قال: فكان أصحاب رسول

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠)، والطبري (١٤/ ١٨٢)، وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٧) وصححه، ووافقه الذهبي، والكاندهلوي في حياة الصحابة (١/ ٢٢٢)، تاريخ المدينة لابن شيبة (٢/ ٤٨١).

الله ﷺ يمازحون عبد الله فيقولون: قبلت رأس علج، فيقول لهم: أُطلِق بتلك القبلة ثمانون من المسلمين[١].

مع عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ولقد بدت هذه الثمرة المباركة جلية في جيل الصحابة، وهم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان..

ففي فتح مصر ذهب عبادة بن الصامت مع وفد من المسلمين لمقابلة المقوقس، فعرضوا عليه وعلى من معه من المسلمين المال وأغروهم به ليرجعوا عن فتح مصر..

فقال عبادة بن الصامت: يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي يخوفنا، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلتم حقًّا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالكم، وأشد لحرصنا عليكم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قُتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذٍ على إحدى الحسنيين:

إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عَزَّوَجَلَّ قال لنا في كتابه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وما منا من رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الله الشهادة

(١) أسد الغابة لابن الأثير (١/ ٥٩٧، ٣/ ١١، ٢١٢)، معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني (١١/ ٣٥٢ رقم: ٣٦٠٨)، تاريخ دمشق (٢٧/ ٣٥٩).

وألا يرده إلى بلاده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا همّ فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه في أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا.

وأما قولك: إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك بالباطل، بذلك أمرني الأمير، وبه أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا:

إما أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا، وكان أخانا في دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدًا ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إذ كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت من آخرنا أو نصيب ما نريد منكم. **هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينكم غيره**، فانظروا لأنفسكم.

موقف جامع

ونختم هذه الثمار بموقف لسيدنا معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع قادة الروم تجلت فيه

كثير من ثمار الإيمان:

أرسل أبو عبيدة معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قادة الروم، فأتاهم على فرس له، فلما دنا منهم نزل عن فرسه، ثم أخذ بلجامه وأقبل إليهم يقوده، فقالوا لبعض غلمانهم: انطلق إليه فأمسك له فرسه. فجاء الغلام ليفعل، فقال له معاذ: أنا أمسك فرسي، لا أريد أن يمسكه أحد غيري.

وأقبل يمشي إليهم، فإذا هم على فرش وبسط ونمارق تكاد الأبصار تغشى منها، فلما دنا من تلك الثياب قام قائمًا، فقال له رجل منهم: أعطني هذه الدابة أمسكها لك، وادن أنت فاجلس مع هذه الملوك مجالسهم، فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم، وقد بلغهم عنك صلاح وفضل فيمن أنت منه، فهم يكرهون أن يكلموك جلوسًا وأنت قائم.

فقال لهم معاذ -والترجمان يفسر لهم ما يقول-: إن نبينا ﷺ أمرنا ألا نقوم لأحد من خلق الله، ولا يكون قيامنا إلا لله في الصلاة والعبادة والرغبة إليه، فليس قيامي هذا لكم، ولكن قمت إعظامًا للمشي على هذه البسط والجلوس على هذه النمارق التي استأثرتم بها على ضعفائكم، وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها، وقد زهد الله في الدنيا وذمها، ونهى عن البغي والسرف فيها، فأنا أجلس هاهنا على الأرض، وكلموني أنتم بحاجتكم من ثم، وأقيموا الترجمان بيني وبينكم، يفهمني ما تقولون، ويفهمكم ما أقول. ثم أمسك برأس فرسه وجلس على الأرض عند طرف البساط.

فقالوا له: لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك، إن جلوسك مع هذه الملوك على هذه المجالس مكرمة لك، وإن جلوسك على الأرض متنحيًّا صنيع العبد بنفسه،

فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك.

فلما أخبره الترجمان بمقالتهم جثا على ركبتيه واستقبل القوم بوجهه، وقال للترجمان: قل لهم: إن كانت هذه المكرمة التي تدعونني إليها استأثرتم بها على من هو مثلكم إنما هي للدنيا، فلا حاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها، وإن زعمتم أن هذه المجالس والدنيا التي في أيدي عظمائكم وهم مستأثرون بها على ضعفائكم مكرمة لمن كانت في يده منكم عند الله، فهذا خطأ من قولكم، وجور من فعلكم، ولا يدرك ما عند الله بالخطأ، ولا بخلاف ما جاء به الأنبياء عن الله من الزهادة في الدنيا.

وأما قولكم: إن جلوسي على الأرض متنحيًا صنيع العبد بنفسه، ألا فصنيع العبد بنفسه صنعت، أنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله، ولا أستأثر من مال الله بشيء على إخواني من أولياء الله.

وأما قولكم: أزريت بنفسي في مجلسي، فإن كان ذلك إنما هو عندكم وليس كذلك عند الله، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كنت عند الله على غير ذلك، وإن قلتم: إن ذلك عند الله. فقد أخطأتم خطأ بيِّنًا؛ لأن أحب عباد الله إلى الله المتواضعون لله القريبون من عباد الله، الذين لا يشغلون أنفسهم بالدنيا، ولا يدعون التماس نصيبهم من الآخرة.

فلما فسر لهم الترجمان هذا الكلام نظر بعضهم إلى بعض وتعجبوا مما سمعوا منه، وقالوا لترجمانهم: قل له: أنت أفضل أصحابك؟

فلما قال له، قال: مَعَاذَ اللهِ أن أقول ذلك، **وليتني لا أكون شرهم**[(١)].

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء للكلاعي (٢/ ٢٢٩).

فإنهـــم لكذلك إذ بعثوا إلى أبي عبيدة: إنك بعثت إلينا رجلًا لا يقبل النَّصَف[١]، ولا يريد الصلح، فلا نرى أعن رأيك ذلك أم لا؟!

وإنا نريد أن نبعث إليك رجلًا منا يعرض عليك النَّصَف، ويدعوك إلى الصلح، فإن قبلت ذلك منه فلعله يكون خيرًا لنا ولك، وإن أبيت فلا نراه إلا شرًّا لك.

فقال لهم أبو عبيدة: ابعثوا من شئتم.

فبعثوا إليه رجلًا منهـــم، طويلًا أحمر أزرق[٢]، فلما جاء المســـلمين لم يعرف أبا عبيدة من القـــوم، ولم يدرِ أفيهم هو أم لا؟! ولم يرَ هيبة مـــكان أمير! فقال: يا معشر العرب، أين أميركم؟

قالوا له: هو ذا، فنظر فإذا هو بأبي عبيدة جالسًـــا على الأرض عليه الدرع، وهو متنكب القوس[٣]، وفي يده أســـهم يقلبها. فقال له: أنـــت أمير هؤلاء الناس؟ قال: نعم.

قال: فما جلوسك على الأرض؟ أرأيت لو كنت جالسًا على وسادة، أو كان تحتك بساط، أكان ذلك واضعك عند الله أو مباعدك من الإحسان؟

فقال أبو عبيدة: إن الله لا يســـتحي من الحق، لأصدقنك عما قلت، ما أصبحت أملك دينارًا ولا درهمًا، وما أملك إلا فرسي وسلاحي، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فلم تكن عنـــدي حتى اســـتقرضت أخي هذا -يعنـــي معاذًا- نفقـــة كانت عنده، فأقرضنيها، ولو كان عندي أيضًا بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون أصحابي

(١) من الإنصاف وهو العدل.

(٢) أي أحمر الوجه أزرق العينين. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (ص: ١٩٦) الجزء الثاني المجلد الأول. بالهامش.

(٣) أي واضع القوس على منكبه (أي كتفه).

وإخواني، وأُجلِس على الأرض أخي المسلم الذي لا أدري لعله عند الله خير مني، ونحن عباد الله نمشي على الأرض، ونأكل على الأرض، ونجلس عليها، ونضطجع عليها، وليس بناقصنا ذلك عند الله شيئًا، بل يعظم الله به أجورنا، ويرفع به درجاتنا. هات حاجتك التي جئت لها[١].

• • •

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٢٣٢).

كلمة أخيرة

حول ثمار الإيمان

.. هذه – أخي القارئ – عشر ثمار للإيمان الحي عندما يتمكن من القلب، قد تعرَّفنا عليها وعشنا بعض أمثلتها العملية، وكما ذكرنا – سابقًا – بأن الهدف من هذا الطرح هو استثارة مشاعرنا، وتعميق شعورنا بالاحتياج الشديد للتربية الإيمانية.

ولكي يتأكد لدينا هذا الشعور علينا أن نتعرف على المزيد من الأمثلة العملية لهذه الثمار وغيرها، وذلك من خلال القراءة في الكتب التي تتحدث عن المعاني الإيمانية، وتربطها بالواقع العملي في جيل الصحابة.

ولعل من أنسب الكتب التي تحدثت عن جيل الصحابة بهذه الطريقة كتاب: «حياة الصحابة» لمحمد يوسف الكاندهلوي رحمه الله.

الفصل الثاني

كيف حالك مع ربك؟

يتم –بإذن الله– الحديث في هذا الفصل عن مراحل الارتقاء الإيماني، وبعض المظاهر العملية لهذه المراحل، والهدف من هذا الحديث هو استشـــعار الخطر تجاه ضعف الإيمان في قلوبنا – إلا من رحم الله.

وتذكَّر – أخي– أنه كلما ازداد الشـــعور بالخطـــر، ازدادت الرغبة في التغيير والترقي.

لذلك أدعـــو نفسي وأدعوك – أخي القارئ – إلى قراءة هذا الفصل بعقولنا ومشـــاعرنا وأن يقوم كل منّا بتقييم نفسه وحالته الإيمانية من خلال عرض اهتماماته وسلوكه وواقعه على المراحل الإيمانية المذكورة في هذه الصفحات، فلعله بذلك يعرف أين هو من الإيمان؟ وكيف حال قلبه مع ربه؟

كيف حالك مع ربك؟

نور القلب

كما أن للعين نورًا تُبصر به وترى ما حولها؛ فإذا ما غاب عنها عميت، كذلك فإن للقلب نورًا يُبصر به، ويرى حقائق الأمور فإذا ما غاب عنه ذلك النور عمِي وتاه وتخبط: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٢].

ونور القلب هو أهم مظهر لحياته، فبدونه يصير القلب مُظلمًا، قاسيًا ضيقًا موحشًا.

فإذا ما دخله بصيص من نور الإيمان تغيرت طبيعته، وتحسنت حالته، وظهرت بعض الآثار الإيجابية على صاحبه.

وعندما يستمر النور في الدخول، والإيمان في الزيادة والنمو؛ يتنوَّر القلب أكثر وأكثر، وتتحسن صحته، وينعكس ذلك بالإيجاب على اهتمامات وسلوك صاحبه.

أما إذا ما دخل نور الإيمان القلب -بإذن الله- ثم لم يعمل صاحبه باستمرار على زيادته؛ فسينقص حجمه، وقد يضمحل، وينزوي في القلب؛ ومن ثَمَّ تزحف الظلمة إليه مرة ثانية لتكون النتيجة: اختفاء الكثير من الآثار الإيجابية والثمار الطيبة للإيمان: ﴿ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ ﴾ [الحديد: ١٦].

ويكفيك لتأكيد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ يَخْلَقُ فِي الْقُلُوبِ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ فَجَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ**»(١).

(١) المعجم الكبير (١٤/ ٦٩ برقم: ١٤٦٦٨)، المستدرك على الصحيحين (١/ ٤٥ برقم: ٥) ويخلق بمعنى: يبلى.

وقولــه ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عَرْضَ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ..**»(١).

يقظة القلب هي البداية

كــما أن للبدن مراحل نمــو وارتقاء، كل مرحلة لها ســماتها ومظاهرها، كذلك الإيمان في القلب.

والمرحلــة الأولى للارتقاء الإيماني هي مرحلة «**بداية اليقظة**».. يقظة القلب بنور الإيمان؛ حيث يمُنُّ الله عَزَّوَجَلَّ على العبد بإدخال نور الإيمان إلى قلبه، لتبدأ الحياة تدب في جنباته، وتبدأ معها مرحلة جديدة في مســيرة صاحبه... وكيف لا، والقلب –قبل يقظته– مظلم قد ســيطر عليه الهوى وتحكَّم في مشــاعره.. يفرح بما تفرح به نفســه وهواها، ويغضب لها، ويحزن على مــا يفوتها أو يُضايقها: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام: ١٢٢].

> **تبدأ اليقظة –في الغالب– ببصيص من النور يجعل القلب يفيق قليلًا من غفلته ويســتيقظ من سُباته، ليبدأ معها العقل في التفكير في حقيقة الحياة والموت، ويزداد شغفه للتعرف على تفاصيل ما يحدث بعد الموت، ومن المتوقع في هذه المرحلة، سيطرة الشعور بالندم على القلب كلما استرجع ذكريات الماضي، والأخطاء التي وقع فيها في حق الله، وفي حق الآخرين، فيدفعه هذا الشــعور إلى الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ والرجاء في عفوه ومغفرته وتوبتــه، ويدفعه كذلــك إلى العمل على رد الحقوق التي اســتلبها من الآخرين.**

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٢٨ رقم: ١٤٤).

وفي هـــذه المرحلة الأولى من مراحل الارتقاء الإيماني من المتوقع أن يَصغُر حجم الدنيا -ولو قليلًا- في عين العبد، وينعكـــس ذلك على تعامله مع مفرداتها، فبعد أن كان يُســـابق ويُنافس عليها، ويُفكِّر فيها ليل نهار، ولا يُبالي -في سبيل نيلها- بغيره، وبالضرر الذي قد يُســـببه للآخرين... تجد حرصه عليها يتناقص؛ ليثمر ذلك تحسنًا ملحوظًا في المعاملات والعمل على ضبطها بضوابط الشرع، وإن بقي الكثير من حب الدنيا في القلب.

ومن أهـــم المظاهر العملية لهـــذه المرحلة: الاتجاه الإيجابي نحـــو أداء العبادات وفضائل الأعمال، فتجـــد العبد حريصًا على أداء الصلـــوات المكتوبة في أول وقتها، وإلحاقها بســـننها الراتبة، وكذلك صيام رمضان وقيامه، والإكثار من صيام التطوع، وتتملكه الرغبة في تعلم أحكام تلاوة القرآن، وحفظ بعض سوره ويزداد حرصه على ســـماع دروس العلم، والالتزام بما يمكن الالتزام به مما يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ من عبادات الجـــوارح، ويزداد حرصه كذلك على نفع الآخرين والقيـــام بحقوقهم عليه، فتجده يصل الرحم، ويُعين المحتاج، ويسعى في قضاء حوائج الناس.

إياك والاغترار ببدايات اليقظة

وصل العديد -بفضل الله- إلى مرحلة «بداية اليقظة»، وكانوا منها على قسمين:

القسم الأول: قسم فرح بآثار اليقظة، وبالتغيير المحدود الذي حدث له، ففترت همته وعزيمته للعمل على اســـتكمال الترقي الإيـــماني، واكتفى بما صار إليه، ونسي أن الإيمان يزيد وينقص، وأن النفس له بالمرصاد؛ مما يجعل الإيمان يتناقص في قلبه شـــيئًا فشيئًا، فتعود -بالتدريج- السيطرة للهوى؛ مما يؤثر بالسلب على اهتماماته وسلوكياته.

.. نعم، في الغالب لن يعود لســـابق عهده من الغفلة الشـــديدة والنوم العميق،

والسيطرة التامة للهوى، إلا أن أحواله الإيجابية ستقل كثيرًا عن المستوى الذي بدأ به مرحلة «بداية اليقظة»، فهو يُصلي لكنه ليس -كالسابق- حريصًا على الصلاة في أول وقتها بالمسجد وبخاصة صلاة الفجر.. وهو لا يسرق لكنه غير منضبط انضباطًا صحيحًا في معاملاته المادية... وهو لا يكذب، لكنه قد لا يقول الحقيقة كاملة تنصُّلًا من لوم الآخرين أو تحقيقًا لمصلحة يتوهم تحقيقها.

تمكُّن اليقظة

أما القسم الثاني: فهو قسم قد علِم أن ما مَنَّ الله عليه به من دخول نور الإيمان إلى قلبه ما هو إلا «بداية» رحلة سير القلب إلى الله، فشمَّر عن ساعد الجد، واجتهد في تعاهد وإمداد القلب بالإيمان.

هذا القِسم من المتوقع أن يُكرمه الله عَزَّوَجَلَّ فينتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل النمو والارتقاء الإيماني، وهي مرحلة: «**تمكُّن واستحكام اليقظة**».

ومن مظاهر هذه المرحلة

- زيادة الحرص على فعل الخير أكثر وأكثر.
- زيادة الورع.
- انصراف الرغبة -بعض الشيء- عن الدنيا، وعدم الفرح الشديد بإقبالها وزيادتها، أو الحزن العميق على فواتها ونُقصانها.
- ازدياد التفكير في الموت وإمكانية لقائه في أي وقت؛ مما يدفعه إلى زيادة التشمير والسباق نحو فعل الخير.

ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ بهذه العلامات، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلنا:

يا رسول الله، قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. كيف انشرح الصدر؟ قال: «**إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَتَحَ**»، قلنا: يا رسول الله، وما علامة ذلك؟ قال: «**الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ**»(١).

استمرار الارتقاء الحقيقي للإيمان

عندما تتمكن اليقظة من القلب ويستمر الإمداد؛ ومن ثَمَّ النمو والارتقاء الإيماني، فإن ذلك من شأنه أن ينعكس على معاملات العبد في شتى المجالات وبخاصة في تعامله مع ربه، ومع الدنيا، ومع المال، ومع الناس، ومع أحداث الحياة...

وكلما استمرت الزيادة الحقيقية للإيمان ارتقى القلب من مرحلة إلى مرحلة في رحلة سيره إلى الله، حتى يصل إلى أقرب ما يُمكن أن يصل إليه عبد في هذه الرحلة -بعد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- حيث الحضور القلبي الدائم مع الله، أو بمعنى آخر: القلب السليم الأبيض الذي لا تضُرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض كما جاء في الحديث: «**قَلْبٍ أَبْيَضَ مِثْلَ الصَّفَا لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**»(٢).

وفي أثناء رحلة القلب إلى الله يحدث له حدث مهم وفارق ومحوريّ ألا وهو «**الولادة الثانية**».

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من التفصيل حول هذه النقاط التي تتناول انعكاسات الارتقاء الإيماني على الكثير من العلائق والمعاملات.

(١) سنن سعيد بن منصور (٥/ ٨٦ برقم: ٩١٨)، الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٤٠٠ برقم: ٣٢٦).
(٢) مسلم (١/ ١٢٨برقم: ١٤٤)، حلية الأولياء (١/ ٢٧٠).

التعامل مع الدنيا مقياس الارتقاء الحقيقي للإيمان

عندما يكون الإيمان مخدرًا نائمًا منزويًا في القلب تجد صاحبه غافلًا، لا يستطيع أن يرى الدنيا على حقيقتها، بل يراها جميلة مبهرة تذهب بالأبصار، فيشتد حرصه عليها، ويزداد فكره فيها وفي كيفية تحصيلها..

فإن كان هذا الشخص طالبًا في المدرسة أو الجامعة تجده كثير الفكر في مستقبله، وكيف سيُدبِّر أمر زواجه، وعمله... إلخ.

وإن كان فقيرًا تجده يحلم بالغنى، وينظر نظرة الطامع إلى دنيا غيره.. يمُد عينيه إليها ويتمنَّاها لنفسه...

وإن كان ثريًّا تجده دائم الفكر في كيفية إنماء أمواله، ومسابقة أقرانه، واغتنام كل فرصة تلوح أمامه من شأنها أن تُزيده ثراء.

حالهم جميعًا كحال الأطفال وهم يلهون بالدُّمى.. يفرحون إذا ما حصلوا على دُمية جديدة، ويقضون معها الساعات الطوال، ويحزنون عليها إذا ما انكسرت وتعطلت، ويحلمون بشراء المزيد والمزيد منها. فإذا جلس إليهم من يكبُرُهم قليلًا في العمر وتجاوز مرحلة الطفولة، تجده غير مبالٍ بهم وبألعابهم واهتماماتهم.

كذلك حال الناس مع الدنيا، فهم يلهون بطينها ويتنافسون عليها، ويفرحون بتحصيل أي شيء منها، ويظنُّون أن هذا هو غاية السعادة، **فإذا ما استيقظ الإيمان في قلوب بعضهم، واستحكمت اليقظة منها، فإنهم -وبصورة تلقائية- لا يجدون في أنفسهم رغبة في مشاركة من حولهم اللهو بهذا الطين، وتنصرف رغبتهم -شيئًا فشيئًا- عنها.. هذا التحول ليس بأيديهم، بل هو انعكاس لطبيعة المرحلة الإيمانية التي ارتقوا إليها، كحال من انتقل إلى مرحلة البلوغ من الأطفال عندما يأتيه أبوه بالدُّمية**

التي طالما تاقت نفسه إليها في الصِّغَر، فإذا به يتعامل معها بدون لهفة ولا شغف، وسُرعان ما يتركها ولا يُبالي بها.

وليس معنى انصراف الرغبة عن الدنيا هو هجرها وتركها وعدم التعامل مع مفرداتها، بل إن الفرد في هذه المرحلة يتعامل معها على أنها مزرعة للآخرة، وأنها مُسخَّرة له لتساعده في إنجاح مهمة وجوده عليها، ولا بأس من التمتع بها بالقدر الذي لا يُنسيه تلك المهمة.

أو بمعنى آخر: تخرج الرغبة في الدنيا، والشغف بها، والحرص واللهفة عليها من قلبه، فيتعامل معها بعقله قبل مشاعره، وبما يُحقق له مصلحته الحقيقية في الدارين، ويمكِّنه من نفع نفسه وأمته فيكون ممن يترك فيها أثرًا صالحًا؛ وبذلك تُصبح الدنيا في يده، يتحكم فيها ولا تتحكم فيه.

الارتقاء الإيماني والتعامل مع المال

المال هو أهم رمز «للدنيا»، والكثير من الناس يظنُّون أنهم يستطيعون من خلال وجوده معهم أن يُحققوا جميع أمانيهم ويجلبوا لأنفسهم السعادة، ويتمتعوا بمباهج الحياة كيفما شاءوا؛ لذلك يُشكِّل المال المادة الأساسية للطمع والتنافس والحسد بين الناس.

ولأن الشيطان يعلم ذلك، ويعلم طبيعة النفس وحبها الشديد للمال، وشُحِّها به؛ فإن من مداخله الرئيسة على الناس: إزكاء هذه الطبيعة فيهم، وتخويفهم من المستقبل المجهول، ومن احتمالية حدوث الفقر: ﴿ **ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ** ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فإذا ما استيقظ الإيمان -يقظة حقيقية متمكنة من القلب- كان من أهم علامات

التغيير الذي يحدث للمرء: اختلاف طريقة تعامله مع المال.

.. نعم، في البداية لا يكون التغيير كبيرًا، فالمال من أحب الأشياء للنفس: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

إلا أن النهم والشغف بالمال ستقِل ثائرته -نسبيًّا- في ذات العبد، وكلَّما نَما الإيمان أكثر انعكس ذلك على طريقة تعامله معه، فيزداد إنفاقه في أوجه الخير المختلفة، ويسهل عليه اتخاذ قرار الإنفاق لاسيما في أوقات العُسر والاحتياج: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وشيئًا فشيئًا ينقطع تعلق القلب بالمال؛ ومن ثَمَّ يصير حُرًّا منه، لا عبدًا له.

ومن مظاهر التغيير في هذا الجانب: نقص ملحوظ يشعر به المرء في فرحه عندما يُفاجأ بزيادة رصيده من المال، أو عند الفوز بصفقة رابحة، وكذلك نقص ملحوظ في حزنه عند فقده جزءًا من ماله، أو عند ضياع مصلحة دنيوية كانت في متناول يده، وليس معنى هذا أن مشاعر الفرح والحزن لا تتحرك لديه عند إقبال المال أو إدباره، ولكنه انفعال لحظي سرعان ما يزول، يضبطه ميزان الزهد الحقيقي: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

ومن المظاهر العملية للتغيير في هذا الجانب: السماحة في البيع والشراء، فتجده لا يُدقق في سعر الشيء ليشتريه بأرخص الأسعار، أو يُغالي فيه ليبيعه بأعلاها.

وكلما قوي الإيمان أكثر وأكثر صار الإنفاق أحب إليه من الإمساك، وهو حين يفعل ذلك يفعله بدافع الثقة العميقة بأن الآخرة هي خير وأبقى، وأن الحياة في الجنة هي الحياة الحقيقية الدائمة التي ينبغي أن يتجهز لها العبد، فيؤدي ذلك الإيمان إلى تحيُّن أي فرصة لإرسال ما يُمكن إرساله من أموال وخلافه إلى داره الباقية «هناك»،

ويجد صعوبة في إبقاء الشيء لداره الدنيوية التي يشعر أنه سيتركها بين لحظة وأخرى.

ولك أن تتأكد من هذا المعنى أكثر وأكثر إذا ما راجعت سيرة الرسول ﷺ، وكيف أنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي، مع أنه ﷺ قد جاءته أموال كثيرة من الغنائم كغنائم خيبر والطائف، لكنه كان يُنفقها إنفاق من لا يخشى الفقر، فكما يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا؟**» قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: «**بَقِيَ كُلُّهَا إِلَّا كَتِفَهَا**»(٢).

ولقد مرَّ علينا قول أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما عوتب في عدم وجود أغطية في بيته تقيه وتقي ضيوفه برد الشتاء؛ حيث قال: لنا دار هناك نُرسل إليها تباعًا كل ما نحصل عليها من متاع، ولو كُنَّا استبقينا في هذه الدار شيئًا منها لبعثنا بها إليكم.

وليس معنى هذا هو حب الفقر والرغبة فيه، فلقد استعاذ رسول الله ﷺ منه فقال: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ**»(٣)، ولكننا -هنا- نتكلم عن حالة إيمانية سامقة يعيشها القلب تدفعه إلى الضن بالمال على الدنيا، والاكتفاء بأقل القليل لتيسير أموره فيها، وإرسال كل ما يُمكن إرساله إلى الدار الباقية، وحتى لو تمتع بنعمها فإنه يشكر الله عليها ولا يستعملها في معصيته.

(١) مسلم (٤/ ١٨٠٦ برقم: ٢٣١٢).

(٢) مسند أحمد (٤٠/ ٢٨٦ برقم: ٢٤٢٤٠)، والترمذي (٤/ ٤٤٦ برقم: ٢٤٧٠).

(٣) مسند أحمد (٣٤/ ١٧ برقم: ٢٠٣٨١)، أبو داود (٤/ ٣٢٤ برقم: ٥٠٩٠)، سنن النسائي (٣/ ٧٣ برقم: ١٣٤٧).

ولقد كان هناك أثرياء في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ نتيجة عملهم في التجارة كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولكنهم كانوا يُحبون إنفاق أموالهم أكثر من حبهم لإمساكها، بل كانوا يتحينون أي فرصة تتاح لهم لبذل تلك الأموال كما فعل عثمان بن عفان في تجهيز جيش العسرة، وشراء بئر رومة، وكما فعل عبد الرحمن بن عوف عندما أخرج كل تجارته التي جاءت من الشام لله عَزَّوَجَلَّ بعدما بلغه قول السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بارك الله فيما أعطاه في الدنيا، ولثواب الآخرة أعظم.

الارتقاء الإيماني والتعلق بالبشر

في أوقات الغفلة وقبل حدوث اليقظة الإيمانية، تكون ثقة المرء في ربه، وفي أنه مالك الكون ومدبر أموره والقائم عليه؛ محدودة، وفي المقابل تكون ثقته في الناس وفي قدراتهم الظاهرة أمامه كبيرة؛ ومن ثَمَّ يزداد إيمانه في إمكانية نفعهم أو ضرهم له، فيسعى لنيل رضاهم والاستفادة منهم؛ لذلك تجده يتزين لهم بأقواله وأفعاله.. يفرح بمدحهم، ويحزن من نقدهم.. يسعى دومًا لتحسين صورته أمامهم لعله ينال حظوتهم.

> **فإذا ما حدثت اليقظة وازداد الإيمان قوةً ورسوخًا في القلب ازدادت تبعًا له الثقة في الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثَمَّ تحولت هذه المشاعر تدريجيًّا نحوه سبحانه، وانصرفت عن الناس، فيقل الاهتمام بهم والتفكير فيهم، والحرص على نيل رضاهم، وإن كان رضاهم عنه سيتحقق بعد ذلك – بإذن الله – ولكن عن طريقه سبحانه؛ تبعًا لا قصدًا.**

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ وَكَّلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ، وَمَنْ**

أَسْخَطَ النَّاسَ بِرِضَا اللهِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ»[١].

وقال ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أهل الْأَرْضِ»[٢].

وكلما ازداد الإيمان أكثر نقص التعلق بالناس، والطمع فيهم حتى يصل المرء لدرجة الاستغناء القلبي عنهم، أو بمعنى آخر: ينقطع تعلق القلب بهم من حيث النفع والضر.

.. نعم هو قد يطلب مساعدتهم في بعض الأعمال، لكنه يتعامل معهم باعتبار أنهم من جملة الأسباب التي قد يأخذ بها، أما الذي يُحرك الأحداث ويُنشئ النتائج فهو الله عَزَّوَجَلَّ، وما البشر إلا ستار لإظهار قدرته وربوبيته.

وكذلك فهو قد يأخذ منهم ما يُعطونه إياه بطيب نفس، ولكن يأخذه بمشاعر من يأخذ من الله عن طريقهم، وأنهم مجرد أدوات لتوصيل رزق ربه -سبحانه- إليه.

.. وهكذا تظهر بالتدريج ثمار الاستغناء عن الناس تبعًا لنمو الإيمان الحقيقي في القلب.

الارتقاء الإيماني والتعامل مع أحداث الحياة

الحياة الدنيوية ما هي إلا مشهد عظيم تتجلى فيه مظاهر صفات الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: ٥٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٠٩ برقم: ٢٤١٤).

(٢) البخاري كتاب الأدب، باب المقة من الله (٨/ ١٤ برقم: ٦٠٤٠)، (٤/ ١١١ برقم: ٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق باب: ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، مسلم (٤/ ٢٠٣٠ برقم: ٢٦٣٧).

والهدف العظيم من وجود المخلوقات بهذه الكثرة على اختلاف أشكالها وألوانها وأوصافها هو الدلالة على الله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والهدف كذلك من تقلبات أحداث الحياة من سرَّاء وضرَّاء، وعطاء ومنع، وصحة ومرض... إلخ؛ هو إظهار قدرته سبحانه وقيُّوميته، وعزته، ورحمته، وحكمته... وسائر صفاته، وأيضًا اختبار موقف الإنسان منها: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

والإنسان هو المخاطب بهذا كله، وعليه أن يتعرف على ربه من خلال هذه المشاهد والأحداث التي تحدث أمامه، ويُشاهدها دومًا: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

لكن ظلمات الهوى والانكفاء نحو طين الأرض قد تحُول بينه وبين الرؤية الصحيحة والتحليل الحقيقي لهذه المشاهد والأحداث:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فإذا ما استيقظ الإيمان؛ فإنه في البداية يكون بمثابة بصيص من النور يظهر في القلب يجعله ينتبه -بعض الشيء- لِما يجري حوله، وبخاصة في الآيات الكبيرة التي يرسلها الله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا ما زاد الإيمان أكثر، قوي نور البصيرة أكثر لتزداد الرؤية العامة وضوحًا،

ويزداد ربط الأحداث والمشاهد بالله عَزَّوَجَلَّ.

.. نعم، من المتوقع ألا تكون هذه الرؤية حاضرة في كل الأوقات، بل ستكون نسبتها محدودة، ولكنها ستزداد مساحتها -بإذن الله- بمرور الوقت وازدياد الارتقاء الإيماني، لتسيطر على فكر العبد ومشاعره، فتجعله يعيش بكيانه في حقيقة التوحيد، فيَعْبُرُ من المشاهدة إلى شهود صفات الله عَزَّوَجَلَّ وهي تعمل، فيربط كل ما يحدث أمامه وكل ما يشاهده بالله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وكان رسول الله ﷺ يعيش بكيانه كله في هذه الحقيقة.. انظر إليه وهو يقول لأصحابه: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يَنْكَشِفَ مَا بِكُمْ**»(١).

وكان ﷺ يقول: «**إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ وَاللهُ يَهْدِي، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي**»(٢).

وعندما مات ابنًا لزينب ابنته قال ﷺ: «**قُولُوا لَهَا: للهِ مَا أَخَذَ وَللهِ مَا أَعْطَى...**»(٣).

ولقد كان الصحابة كذلك يعيشون في ظلال هذه الحقيقة، فهذا عبد الله بن

(١) البخاري في الكسوف والجمعة، باب الصدقة في الكسوف (برقم: ١٠٤٤، ١٠٤٦، وبرقم: ١٠٤٧، ١٠٥٨، ١٠٦٦، ١٢١٢، ٣٢٠٣، ٤٦٢٤)، مسلم (٢/ ٦١٨ برقم: ٩٠١، ٩٠٣)، وراجع جامع الأصول بتحقيق: عبد القادر الأرناؤوط؛ حيث استوفى تخريجه وتتبع مواضعه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ١٣٣ برقم: ١٦٩٣٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٣٨٩ رقم: ٩١٤).

(٣) البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**يُعَذَّبُ المَيْتَ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**» (٢/ ٩٩ برقم: ١٢٨٤)، مسلم: باب البكاء على الميت، كتاب الجنائز (٢/ ٦٣٥ برقم: ٩٢٣).

عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن قتل أبا رافع اليهودي في حصن خيبر يعود مسرعًا إلى أصحابه يُبشرهم بقتله ويستحثهم على سرعة مغادرة المكان، ومع هذا الوضع المتوتر إلا أنه لم ينس تلك الحقيقة فقال لهم: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع[١].

وهذا الطفيل بن عمرو الدوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقُصُّ على من حوله قصة إسلامه فيقول: وأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله[٢].

وهذا سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُرسل رسالة إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُبشره فيها بنصر القادسية فيقول فيها: ولقد استشهد «الله» فلانًا وفلانًا[٣].

وعندما كان الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصي ابنه عبد الله بضرورة سداد دَيْنِه قال له في معرض حديثه:

يا بُني إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه مولاي، قال عبد الله: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبه، من مولاك؟ قال: الله.

قال عبد الله: فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقضِ عنه دينه فيقضيه[٤].

مع المنع والعطاء

ومع انعكاس زيادة منسوب الإيمان في القلب على وضوح الرؤية لآيات الله

(١) البخاري في المغازي، باب قتل أبي رافع (٥/ ٣٢ برقم: ٤٠٣٩) وفي الجهاد باب قتل النائم المشرك (٤/ ٢٩ برقم: ٣٠٢٢)، انظر السيرة النبوية لعلي الصلَّابي (٢/ ٤١٨).

(٢) معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني (١١/ ١٧٥ برقم: ٣٥٠٠)، السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢٦).

(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٥٨٣) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (٤/ ١٢٠)، والبداية والنهاية طبعة هجر (٩/ ٦٣٦).

(٤) البخاري كتاب فرض الخمس، باب بركة الغازي في ماله حيًّا وميتًا (٤/ ٦٣ برقم: ٣١٢٩).

المختلفة، فإنه أيضًا ينعكس على طريقة استقبال العبد لها، وتعامله معها، فتجده يربط النعم التي تَرِد عليه بالله المنعم، ويفرح بفضله -سبحانه- ويستكثر على نفسه هذا الفضل؛ ومن ثَمَّ تهيج مشاعر الامتنان لله عَزَّوَجَلَّ في قلبه ليعيش حالة القلب الشاكر.

.. وفي أوقات المحن والبلايا تجده -وإن تضايق قليلًا في البداية- إلَّا أنه سرعان ما يعود به إيمانه إلى الصبر وعدم الجزع أو التَّسخُّط، بل ومن المتوقع -مع استمرار الزيادة الإيمانية- أن يعيش المرء في حالة الرضا عن الله، فيسكن قلبه مهما تقلَّبت به الأحداث.

وباستمرار زيادة الارتقاء الإيماني يزداد فهم العبد لأحداث الحياة وتقلباتها، وبخاصة المؤلمة منها؛ لتتحول كلها في نظره إلى عطاء من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا** ﴾ [التوبة: ٥١].

قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَا يَكُونَ هَذَا إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

ومما يلزم التنويه إليه أنه مهما ارتقى الإيمان في قلب العبد إلا أن بشريته -وما فيها من ضعف- لن تُفارقه؛ لذلك فمن المتوقع أن تَزِلّ الأقدام في بعض الأمور القليلة والنادرة، لكن داعي الإيمان سُرعان ما يدفع صاحبه للعودة السريعة والتوبة النصوح، واستئناف السير إلى الله: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٥ برقم: ٢٩٩٩).

الارتقاء الإيماني والحالة القلبية

كلما قوي الإيمان وازداد نوره في القلب أحس المرء بانشراح في صدره، وتضاءلت أوقات شعوره بالضيق، فإذا ما استمر النور في دخول القلب ازدادت مساحة الحياة فيه، وشيئًا فشيئًا تُصبح مساحة الحياة في القلب أكبر وأكثر اتساعًا من غيرها، فيحدث حدث مهم ومادي يشعر به المرء في لحظة سعيدة من لحظات عمره، ألا وهو شعوره بتحرك قلبه في صدره حركة سريعة ومضطربة، وهذا ما يُسمى بولادة القلب الحي، أو «الولادة الثانية»، والتي يصفها أحد السلف بقوله: كنت ساجدًا في صلاة فجر يوم من الأيام، وقُمت من السجود لكني شعُرت بأن قلبي لم يقُم من سجدته.. أي: حدث له خشوع وهبوط وشدة انجذاب إلى الأسفل، وعندما قام البدن من السجود ظلَّ القلب كما هو، ثم يعود بعد ذلك إلى حالته الطبيعية إلى أن تأتي لحظات أخرى في الصلاة أو الذكر أو الدعاء أو التفكر، يتكرر فيها هذا الأمر بصورة لا إرادية.

وتفسير هذا الأمر أن القلب قبل ذلك يكون متعلقًا بأشياء تَحول بينه وبين العبودية الحقَّة لله عَزَّوَجَلَّ، كالتعلق بالمال، أو الناس أو المنصب، أو العقار.. هذه الأشياء تكون بمثابة السجن الذي يعيش فيه العبد، والوثاق الذي يُقيِّده، فإذا ما نما الإيمان في قلبه ضعُفت تلك العلائق والأغلال، حتى تأتي اللحظة السعيدة عندما تنقطع وتنفصل عن القلب، فيصير حُرًّا منها، مُتعلقًا بربه، لذلك تجده يخشع ويهبط ويضطرب عند ذكر الله، ودعائه، والتضرع إليه...

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم: فللروح في هذا العالم نشأتان؛ إحداهما: النشأة الطبيعية المشتركة، والثانية: نشأة قلبية روحانية، يُولد بها قلبه، وينفصل عن مشيمة طبعه، كما وُلد بدنه وانفصل عن مشيمة البطن.

وفي كتاب «الزهد» للإمام أحمد أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال للحواريين: إنكم لن تلِجوا ملكوت السماوات والأرض حتى تُولدوا مرتين.

ويستطرد ابن القيم قائلًا: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: هي ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان، وخروجها من عالم الطبيعة، كما وُلدت الأبدان من البدن، وخرجت منه[1].

وعندما تحدث -بإذن الله وفضله- تلك الولادة للقلب، فإنه ينتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل حياته، وتظهر آثارها بوضوح في تفاعله مع الأحداث فيصبح قلبًا رقيقًا سريع التأثر بالمواعظ، سريع الوجل والاضطراب عند ذكر الله: ﴿ **ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢]، سريع الحضور والاستدعاء في الدعاء والذكر والفكر والصلاة، وبخاصة عند تكبيرة الإحرام.

يشعر صاحبه بهبوطه وخشوعه كحالة من حالات التأثر والتجاوب مع قراءة القرآن أو الدعاء أو الذكر أو المناجاة: ﴿ **وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٩]. وتزداد سرعة وقوة هذا التفاعل كلما زاد نور الإيمان فيه.

الارتقاء الإيماني والعلاقة مع الله عز وجل

لكل واحد منَّا علاقات مع الآخرين.. هذه العلاقات تتفاوت ما بين القوَّة والضعف، فهناك من يحتل المرتبة الأولى، وهناك من يحتل المرتبة العاشرة، وهناك من يحتل المرتبة الخمسين، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه المراتب لا يتم ترتيبها بقرارات من الشخص، بل هي نتيجة ممارسات، ورصيد، وثقة، ومشاعر.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٤٦).

ولكل مرتبة مظاهر تميزها عن غيرهـــا، فصاحب المرتبة الأولى له مكانة خاصة عند المرء تجعله يُسِرُّ له بأسراره، ويستشيره في خصوصياته... يفرح بقربه، ويشتاق إلى رؤيته، ويَتَحيَّن أي فرصة للقائه، ويســعد بصحبتــه، ولا يمل من هذه الصحبة مهما طالت المدة.

أما صاحب المرتبة الخامســة -مثــلًا- فالأمر يختلف.. نعم، هــو يفرح برؤيته ويسعد بصحبته، ولكن ليس كالأول.

أما صاحب المرتبة العاشرة فالعلاقة أقل بكثير ممن سبقه.

فإذا ما سأل الواحد منَّا نفسه عن علاقته بربِّه، وأي مرتبة تحتل؟

فإننا ســنُفاجأ بأنها ليست في المراتب الأولى، وذلك من خلال رصد مظاهر هذه العلاقة.. فلا شوق إلى لقائه، ولا أُنس بمناجاته، ولا سعادة في قربه، ولا فرح بالخلوة بــه، ولا تنعُّم بذكره، وكل هذا بســبب ضعف الإيمان، وضعف الثقة به ســبحانه، وبقدره العظيم.

> **.. فإذا ما حدثت اليقظة الإيمانية الحقيقية، وقوي الإيمان في القلب، فإن هذه العلاقة تتحســن تدريجيًّا، وتنتقل من مرتبــة إلى مرتبة أعلى منها، وتستمر في الصعود كلما زاد الإيمان حتى تحتل المرتبة الأولى؛ حيث تزداد الرغبة في الله، والرضا به، والســعادة في ذكره، والبهجة في تلاوة كلامه، والأنس في الخلوة به ومناجاته.**

.. يزداد الحضور القلبي الدائم معه -سبحانه- ليُثمر سؤاله وطلب مساعدته في أموره كلها، وإشهاده على ما يحدث له من تكذيب المكذبين، أو إعراض الـمُعرضين، بل يصل الأمر إلى الاعتذار عن جحود الناس ونسيانهم شكر الله على نعمه:

«اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ»(١).

.. ينتظر الفرصة التي يخلو فيها المكان، وتهدأ الأصوات ليخلو بربه، ويبُثُّ إليه أشواقه، ويعرض عليه شكايته، ويطلب منه حاجته..

.. يُسارع في استرضائه إذا ما وقع منه تقصير أو تجاوُز..

.. يــزداد بذله للجهد في خدمة دينه، ودعوة خلقه إليه، ونفعهم بكل ما أنعم الله عليه: **«أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ... »**(٢).

.. يشعر بالغنى به، ويعيش قلبه في حالة من الامتنان نحوه سبحانه.

.. يزداد ويزداد تعلقه به، واستغناؤه عن غيره.

هذا هو معنى الوصــول إلى الله في الدنيا، فكما يقول ابن رجب: الوصول إلى الله نوعان: أحدهما في الدنيا، والثاني في الآخرة.

فأما الوصول الدنيوي فالمراد به:

أن القلوب تصل إلى معرفته، فإذا عرِفته أحبَّته وأنِســت به، فوجدته منها قريبًا، ولدعائها مجيبًا، كما في بعض الآثار:

«ابْــنَ آدَمَ، اطْلُبْنِي تَجِدْنِي، فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَــدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ».

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٣١٨ برقم: ٥٠٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥ برقم: ٩٨٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٨٩، برقم: ٤٣٦٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥٣ برقم: ١٣٦٤٦)، وفي المعجم الأوسط (برقم: ٦٠٢٣)، وفي المعجم الصغير (٢/ ٣٥).

وأما الوصول الأخروي: فدخول الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه، ولكنهم في درجاتها متفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في القرب: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾[الواقعة: ١٠، ١١][(١)].

(١) المحجة في سير الدلجة للحافظ ابن رجب (٤/ ٤٢٩).

أهداف التربية الإيمانية

تم بفضل الله الحديث في الصفحات السابقة عن مراحل إيقاظ وتجديد الإيمان، والتي من المفترض أن يشعر بآثارها الفرد في تعامله مع ربه، ومع الدنيا، ومع الناس، ومع أحداث الحياة، ويشعر بآثارها كذلك في أحوال قلبه.

ويمكننا أن نُصيغ هذه المراحل في أهداف ثلاثة؛ نضعها أمامنا ونسعى للوصول إليها -بإذن الله-.. هذه الأهداف هي:

أولًا: الهدف القريب

وهو تمكُّن واستحكام اليقظة من القلب، فلا نريد يقظة لحظية، بل نريدها يقظة حقيقية دائمة تتمكن من القلب لتبدأ معها الحياة تدب في جنباته، ولقد أجمل آثارها رسول الله ﷺ عندما سُئل عن علامات دخول النور القلب فقال:

«الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ»[1].

ثانيًا: ولادة القلب الحي

هذا الهدف لا يمكن الوصول إليه إلا باستمرار تزويد القلب بالإيمان بعد تمكُّن اليقظة منه، والمقصود بولادة القلب الحي: أي تحرره من أَسر الهوى وانفصاله عنه. أو بمعنى آخر: انقطاع الحبل الذي يجمع العلائق التي كان القلب مُتعلقًا بها من دون الله

(١) سنن سعيد بن منصور (٥/ ٨٦ برقم: ٩١٨)، الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٤٠٠ برقم: ٣٢٦).

كالمـــال والجاه والناس، التـــي تحول بينه وبين التعلق التام بـــالله عَزَّوَجَلَّ، والالتزام به، والتوجه الدائم نحوه.

هذه الولادة تتـــم عندما يعلو النور في القلب على الظلمـــة بصورة كبيرة، ومن علامات حدوثها: رقة القلب وسرعة تأثره بالمواعظ، وهبوطه وخشـــوعه وسجوده لله، وســـهولة اســـتدعائه إذا أراد صاحبه اســـتحضاره، ومن آثارها كذلك: تحسن ملحـــوظ في علاقات المرء المختلفة، فيزداد قربه من ربه، وتعلقه به، وتنقص رغبته في الدنيا بصورة ملحوظة، ويقل طمعه في الناس، ويزداد تشميره نحو الجنة...

ومن آثارها كذلك: راحة البال والشعور بالسكينة والطمأنينة والسلام الداخلي.

الهدف الثالث: الحضور القلبي الدائم مع الله

والتعلق الشـــديد به -سبحانه- أو بمعنى آخر: تحقيق قوله ﷺ عندما سُئل عن الإحسان فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»(١)، وهذا يحدث إذا ما استمر الإمداد الإيماني للقلب، فيزداد فيه النور، حتى يصير قلبًا سليمًا أبيضَ، ومن آثار ذلك:

خضوع المشاعر والسلوك في مجمله لله عَزَّوَجَلَّ كما قال رسول الله ﷺ:

«**مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»(٢).

وقال ﷺ: «**لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّـــى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ**

(١) مسلم (١/ ٣٩ برقم: ٨) كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، الترمذي (٥/ ٦٠ برقم: ٢٦١٠) كتاب الإيمان، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان (٥/ ٦٠ برقم: ٤٦٨١).

وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ»[١].

ومن آثارها كذلك: التعامل مع أحداث الحياة وتقلباتها المختلفة تعاملًا إيمانيًّا كما قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[٢].

> **والقلب في هذه المرحلة العظيمة يعيش في سعادة عظيمة وعلاقة متينة مع ربه.. فهو شاكرٌ لأنعمه، صابرٌ على بلائه، راضٍ بقضائه، مطمئنٌّ بذكره، في شوق دائم إليه وتوجه مستمر نحوه.**

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يشملنا بعظيم فضله، وأن يجعلنا من أصحاب القلوب السليمة المطمئنة، وأن ينورها بنور الإيمان به، ويخرجها من ظلمات الجهل والغفلة والهوى.

• • •

(١) مسند البزار (١٠/ ٤٥ برقم: ٤١٠٧) ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١١٠ برقم: ٢٤٦).
(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٥ برقم: ٢٩٩٩) في الزهد، باب المؤمن أمره كله خير.

كلمة أخيرة

أخي الحبيب

لقد كان الهدف الرئيس الذي ترمي إليه الصفحات السابقة هو تنمية وتقوية الشعور بالاحتياج إلى الترقي في مدارج الإيمان؛ ليكون ذلك بمثابة الوقود الذي يُشعِل الرغبة، ويُلهِب العزائم نحو السير في طريق الإيمان، والعمل المستمر على تقويته.

لذلك أدعو نفسي وأدعوك -أخي- وقبل أن نترك هذه الصفحات إلى استثمار تلك الحالة الشعورية التي قد انتابتنا -بفضل الله- ونحن نعيش مع ثمار الإيمان ومراحله، وذلك في اتخاذ قرار جازم ببداية جديدة مع الله عَزَّوَجَلَّ، وعزم صادق على إحياء قلوبنا بالإيمان.

هيا -أخي- نتخذ القرار الآن وقبل أن يضعف عزمنا، وأُحذر نفسي وإياك من الاستجابة لوساوس الشيطان بأن ظروفنا ومشاغلنا وأعمارنا لا تسمح بذلك، فالذي يُحيي القلوب ويُزكِّي النفوس هو الله عز وجل، وهو سبحانه يريد منَّا -كبداية- صدق الرغبة، وقوة العزم حتى يُحيي قلوبنا ويشرح صدورنا بنور الإيمان: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

ويُريد منَّا بعد صدق العزم: حُسن الاستعانة به والتوكل عليه في تحقيق ذلك الأمر: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

من هنا تظهر أهمية ترجمة هذا الشعور وهذا العزم بدعائه سبحانه بمثل دعاء المضطر المُشرِف على الغرق الموقن بأن ربه -هو وحده- القادر على إنقاذه، وعلينا أن نداوم على ذلك حتى يشرح الله صدورنا، ويوقظ قلوبنا، ويدفعنا إلى الترقي في مدارج الإيمان.

ولنعلم -أخي- أن مفتاح الإجابة هو التضرع والحُرقة واستشعار الاحتياج الماس لله عَزَّوَجَلَّ.

فلنبدأ من الآن بالدعاء والتضرع والإلحاح على الله، ولنتذكر قول رسول الله ﷺ: «**إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ**»(١).

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين.

● ● ●

(١) أخرجه النسائي (٤/ ٦٠ برقم: ١٩٥٣)، والحاكم (٣/ ٦٨٨ برقم: ٦٥٢٧).

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

المقدمة.....٥

الفصل الأول
من ثمار الإيمان في جيل الصحابة

لماذا الحديث عن جيل الصحابة؟!..... ١١

الثمار العشر.....١٣

أولًا: المبادرة والمسارعة لفعل الخير.....١٥

التنافس في الخير.....١٧

شدة الحرص على دعوة الخلق إلى الله.....١٨

ثانيًا: تقوية الوازع الداخلي (الورع).....٢٠

الحارس الأمين.....٢١

شدة الورع.....٢٢

ثالثًا: الزهد في الدنيا..... ٢٥

هكذا كانوا..... ٢٦

رابعًا: التأييد الإلهي..... ٣١

الأمة والإيمان..... ٣٢

الوعد الحق..... ٣٣

نماذج للولاية والتأييد الإلهي..... ٣٥

التأييد الإلهي للفئة المؤمنة..... ٣٧

خامسًا: إيقاظ القوى الخفية..... ٤٥

أعمى يحمل الراية..... ٤٨

شلَّال الإيمان..... ٤٨

سادسًا: الرغبة في الله..... ٥٠

الراغبون في الله..... ٥٠

سابعًا: اختفاء الظواهر السلبية..... ٥٣

غنائم حنين والطائف..... ٥٧

ثامنًا: التأثير الإيجابي في الناس..... ٦٠

القلوب بيد الله..... ٦١

أصلح نفسك تُصلح لك رعيتك..... ٦٢

تاسعًا: اتخاذ القرارات الصعبة..... ٦٣

نماذج مشرقة..... ٦٣

إسداء النصيحة..... ٦٥

الانتصاف من النفس..... ٦٥

عاشرًا: الشعور بالسكينة والطمأنينة..... ٦٩

طمأنينة القلب..... ٧١

كلمة أخيرة حول ثمار الإيمان..... ٧٨

الفصل الثاني
كيف حالك مع ربك؟

نور القلب..... ٨١

يقظة القلب هي البداية..... ٨٢

إياك والاغترار ببدايات اليقظة..... ٨٣

تمكُّن اليقظة..... ٨٤

استمرار الارتقاء الحقيقي للإيمان..... ٨٥

التعامل مع الدنيا مقياس الارتقاء الحقيقي للإيمان..... ٨٦

الارتقاء الإيماني والتعامل مع المال..... ٨٧

الارتقاء الإيماني والتعلق بالبشر..... ٩٠

الارتقاء الإيماني والتعامل مع أحداث الحياة..... ٩١

مع المنع والعطاء..... ٩٤

الارتقاء الإيماني والحالة القلبية..... ٩٦

الارتقاء الإيماني والعلاقة مع الله عَزَّوَجَلَّ..... ٩٧

أهداف التربية الإيمانية..... ١٠١

كلمة أخيرة..... ١٠٥

الفهرس..... ١٠٧

• • •